فِي مُدُنِ الغُبَار

فِي مُدُنِ الغُبَار

(روَاية)

أمل رضوان

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/٨٠٠٩
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 542 - 1

في مُدُنِ الغُبَار

رواية

أمل رضوان

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رضوان، أمل

في مدن الغبار: رواية/ أمل رضوان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٥٤٢ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٨٠٠٩ / ٢٠١٩

إهـــــداء

إلى كُلِّ مَنْ غادَرَ وعادَ

إلى كُلِّ مَنْ غادَرَ ولَمْ يعُدْ

1

طحينٌ ومدفـأةٌ وغشاءٌ للبكارة

أملَتْ عليَّ "أم مازن" أشياءَ تحتاجُها للمعيشة: طحينٌ لعمل خبز الصاج، ثم أوضحتْ: "خِبْز المُخَيَّم بيأرِّف، ما بيتاكَل". لَمَّحَتْ لرغبتها في الانتقال لتركيا مع حفيدتها، فأنباء المخيَّمات في البلدان الأخرى تَفِدُ مع الوافدين، وتصفُ الأحوالَ، وتقارنُ بين هذا وذاك، بموضوعيةٍ مرة، ومبالغات مرات. عَلِمَتْ أن المخيَّمات هناك بها مدافئ كهربائية، وأن السلطات التركية توزِّع الحليبَ الطازجَ والفوطَ الصحيةَ على الصبايا. أعطتني بدائِلَ كما لو كنتُ أنا صاحبة القرار! يمكنها الانتقال بصورة مؤقَّتة للمُخَيَّم الإماراتي وسط مدينة عمَّان الذي لا يستقبل سوى اللاجئين الموسرين! حاولَتْ أن تستبقيني لأطول فترة ممكنة حتى

تأتي حفيدتها، علَّني أستطيع مساعدتها. عزفَتْ "غزل" عن الكلام منذ الحادث المشؤوم، وفشلتْ كل المحاولات لجعلها تتحدَّث، حتى بعد هروبهم من حلب ووصولهم عمَّان. ترجَّتْني أن أساعدها. غزل هي كل مَن تبقَّى لها من عائلتها، فربما تعود لسابق عهدها، وتتزوَّج مثل العشرات من رفيقاتها الأقل جمالًا، واللائي يُخْطَبْنَ ويتزوَّجن كل يوم داخل المخيم. قالت لي بتنهيدةٍ تشقُّ القلبَ، وبصوتٍ كله حسرة، وهي تشيرُ برأسها إلى مكانٍ بعيدٍ خارج خيمتها: "البنات كِل يوم رايحين چايين ع صالون "ديما" بِداخْلِة سوق "الشانزيليزيه" ليستأْجِرو أرواب العِرْس!"، ثم خفَضَتْ صوتها واقتربت منِّي، رغم أننا كنا بمفردنا داخل الخيمة، وأضافت: "خَرْچ تساعدينا نعمل عملية لغزل ترچعها بِنِتْ مِتِل الأول؟".

شُلَّ لساني تمامًا من المفاجأة! تصاعد الصهد إلى دماغي، ثم انهمر العرقُ على جبيني وأخذ يبرد إلى أن صار في برودة الثلج، وسدَّت غُصَّةٌ حلقي. لم أتوقَّع أبدًا مثل هذا الطلب، أو حتى أن يكون هذا هو الهاجس الذي يؤرِّق الجدة! أخذتُ رشفةً من كوب الشاي الساخن بـ"النعنع" الأخضر الذي أعدَّته لي؛ حتى أُذيبَ الثلجَ والغُصَّة، وبينما كنتُ أحاولُ أن أجدَ ردًّا مناسبًا ظهرت فتاةٌ خارج الخيمة. نادتها أم مازن: "تاعي غزل. قَرْبي ما تخافي. تاعي الآنْسَة بِدْها تشوفك...".

أطلَّتْ غزل، ظلِّي الأمين، وتابِعَتي المخلصة، التي لوَّثت دمائي طرحتها البيضاء قبل سويعات قليلة.

* * *

2

مقهـى سـالـوتِّـه

بعد انتهاء زيارتنا للمخيَّم أصبح مقهى "سالوتِّه" مقصدي كل يوم. أفكرُ في اسمه "سالوتِّه"، لماذا لا يكون "سالومي"! ألن يكون مناسبًا أكثر! أكرِّر لنفسي: "سالومي. ماذا أنتِ فاعلة لو كنتِ هنا الآن وسمعتِ حكاية غزل، ومطلب جدتها!".

أذهب للمقهى، وأجلس على نفسِ الطاولة بلا سببٍ منطقي سوى التعوُّد على رؤية العالم من زاوية واحدة. أراقبُ العالمَ البعيد، وأحاولُ أن أضعَ له رتوشًا تُـجَمِّله وتُنْسِيني العالمَ القريب، وأحداثَ يومي المؤلِـمَةَ

وسط اللاجئين. أطلبُ صحنًا من البطيخ الأحمر المُثَلَّج، ببذوره السوداء، وأطلبُ معه مكعَّباتٍ شهيَّةً من جبن الماعز الأبيض؛ كي أُبدِّد كآبة الألوان. يضعه الجرسون أمامي مُتجهِّمًا. أحاولُ أن أفهمَ أوضاع البلد، ونفسيَّة أهله، وتقييم أوضاع اللجوء في سياقها؛ من أجل التقرير الختامي. أهلُ هذه الدولة لا يسبُّون رأسَ دولتهم علنًا؛ لكن في السرِّ، ومع الأصدقاء، يخفضون أصواتهم قبل التندُّر على السياسات أو انتقادها. يوقِّرون المرأة حين تكون أُمًّا، ويسبُّون أعضاءها التناسلية إن كانت أختًا. أتناولُ البطيخَ والجبنَ بشوكة صغيرة، وأستطعمُ مذاقَ الخبزِ الفضِّيِّ في أعالي السماء، وأستعيرُ مَسَبَّاتِهم "كِ... إخت ها البعثة".

أُخرِجُ أوراقي، ونظَّارتي الطبية، وأبدأُ العملَ فوق ربوةٍ تأرجحت في أزمنةٍ ليست بعيدة، بين عُلُوٍّ شاهق حين كانت الأرض أمامها منبسطة، وانخفاضٍ مريب أمام بنايات بلهاء شقَّت المراعي الخضراء عنوةً، وواصلت الارتفاع. أواظبُ على الحضور حاملةً معي كتبي وتقريري وسجائري، وضجري الذي أصبح يؤنسني في الصباحات التي لا تأتي، والمساءات التي لا تنتهي. المقهى قديمٌ وكئيبٌ وبالٍ وخافتُ الإضاءة؛ جميع الصفات التي تناسب حالتي المزاجيَّة. أحاول التركيز كي أتذكَّر كيف اخترته وهو لا يكاد يبين وسط الحارات الضيقة؛ فلا أتذكَّر شيئًا سوى أنه مرَّ عليَّ في هذه المدينة ثلاثة أشهر، قضيتها في مُـخَيَّمات اللاجئين في مَهَمَّةِ تَقَصِّي الحقائق مع منظَّمة "حقوقيون بلا حدود". لا زلتُ في فترة النقاهة بعد العمليَّة

الجراحية التي أجريتها لاستئصال المرارة، والأخرى غير الجراحية –والتي لم تكن أقل مرارة– واستأصلتُ فيها لقب "زوجة". في البداية، عندما عُرض عليَّ هذا العمل، لم أسترِحْ كثيرًا لفكرة التواجد وسط مخيَّمات اللاجئين، وتَرْكِ صُحْبَتي وبيتي وغرفتي وسريري، وأنا أمرُّ بهذه الظروف، ولا سيَّما بعد تجربتي القاسية في حلب عقب اندلاع الحرب، والدمار الذي لحق بالمباني التي كنت أتردَّدُ عليها، والسوق القديم الذي دُكَّ بالأرض أمام عينيَّ. لكنني وافقت؛ لعلَّ هذه الرحلة تشفيني من آلام العمليَّتَيْن.

"تلات سلامات

يا واحشني

تلات تيام..."

فجأةً، علا صوت محمد قنديل الدافئ من مكبِّر الصوت في المقهى؛ نفس الأغنية التي اقتحمتْ أذنيَّ منذ شهور، صادرة من نغمة هاتف محمول لأحد المارَّة العرب، بينما كنت أغادر المستشفى البارد في ڤيينا؛ الزيارة التي كانت أيضًا من بين الأسباب التي دفعتني لقبول هذه المهمَّة التَّعِسَة، فوجدتها تلائم "إنسانة" أشدَّ تعاسةً.

"ثلاث سنوات على أكثر تقدير."

ردَّ الطبيب النمساوي "كريستيان هاينـز" ببرودٍ شديدٍ عندما سألته عن الوقت المتبقِّي لي بعد أن قرأ نتيجة التحاليل والفحوصات الطبية التي أجريتها الأسبوع الماضي. لم يكن يجيد الإنجليزية، وأنا لا أتحدَّث الألمانية، فكان يجتهد دائمًا في اختيار العبارات الإنجليزية البسيطة والموجزة؛ ربَّما أردت للمرة الأولى ألَّا يختصر أو يوجز، ربما أردت أن يزيد عباراته، وكلماته، وأيضًا السنوات التي توقَّعها لي.

عندما تركت المستشفى، قرَّرْتُ ألَّا أتوجَّه مباشرة إلى "أوتيل پارك إن"؛ الفندق الصغير الذي اعتدت النزول فيه دائمًا عندما آتي للعمل في ڤيينا، والذي يواجه مبنى الأمم المتحدة، فَضَّلْتُ أن أسيرَ قليلًا، أو ربما كثيرًا، كي أشعرَ بالهواء البارد داخل صدري.

"بإيدي سلام..."

أمام البحيرة الصغيرة المجاورة للمستشفى اصطفَّت المقاعِدُ الخشبيَّةُ ذات المساند الحديدية التي لا تصدأ، رغم رطوبة الجو بصورة دائمة. المشهد ثابت لا يتغيَّر كلَّما مَرَرْتُ أمامه في أوقات الفحوصات الدورية، مياهُ البحيرةِ صافيةٌ كصفاء كل الأشياءِ في هذه المدينة: الدانوب، والسماء، والهواء، وأغلب الناس.

أحكمتُ الشالَ الخفيفَ حول رقبتي. يبدو أنها لن تمطر اليوم. البرد في ڤيينا يستأذن منك أوَّلًا قبل أن يلسعك. لا مفاجآت سوى كلام الطبيب!

"وعيني سلام..."

"سلامة عيونِك يا جميل!"

فتح باب الشقة، ودخل إلى الصالة الفسيحة دون أن يصدر أي صوت، ثم فاجأني بهذه العبارة الودودة. أجفلتُ عندما رأيته أمامي بغتةً وأنا أفرك عينيَّ، فَأَدَرْتُ رأسي عن الكتاب الذي استغرقني تمامًا. يأبى دومًا أن يتخلَّى عن شخصية العَسَس. لم أُعَلِّقْ، وواصلتُ القراءة.

سألني:

"إيه الأخبار؟"

رَدَدْتُ دون أن أرفع رأسي هذه المرة:

"عادي"

"كان فيه مظاهرة. أدِّبْناهم ولاد الكلب اللي مِمَرْمَطِنَّا وراهم في الشوارع عمَّال على بطَّال"

"..."

استطرد دون أن يأبه لتجاهُلي:

"طبعًا زعلانة عشانهم، وزعلانة مِنيِّ!"

هززت رأسي:

"عادي"

تركني وذهب ليخلع ثيابه الرسمية. يا الله! لطالما كرهتُ زِيَّه الأبيض الصيفي. دائمًا يرهق الخادمة في تنظيف الياقات والأكمام قبل إرساله إلى محل "الدراي كلين". توقَّفْتُ فجأة عند هذه الفكرة. لطالما كرهتُ أيضًا زِيَّه الأسود الشتويَّ، رغم أنه لا يرهق الخادمة في تنظيفه، أو يسبِّب أي أعباء إضافية.

هَزَزْتُ كتفي بلا مبـالاة. على أية حـال، لن أعدم سببًا آخر لكرهه. وواصلت القراءة.

"وقلبي سلام

تلات سلامات..."

ما بال رقم ثلاثة معي! ثلاث سنوات! ربما تبدو فترة قصيرة. لماذا إذن لا أتحايل عليها. ثلاث سنوات أي 36 شهرًا، أي 1096 يومًا؛ لأن هناك سنتين بسيطتين وسنة واحـدة كبيسة. هي فترة طويلة لا تُخْتَصَرُ فقط عند الرقم "ثلاثة"، ولكن ممكن زيادتها حتى تصبح ألفًا أو أكثر. قَرَّرْتُ وقتها أن أُسرع لحجز تذكرة لأوركسترا ڤيينا الفيلهارموني قبـل أن تنفدَ، وأن أراسلَ المنظمة وأُبلغها بقبولي المهمة اللعينة في مُخَيَّم اللاجـئين اللعين في عمَّان.

* * *

3

الزعتري

على مسافة نحو عشرين كيلومترًا شرقيِّ مدينة المفرق شمال شرق الأردن، يقع مخيم الزعتري لِلَّاجئين السوريين. بدأت موجات النزوح على الأردن منذ تَفَجُّرِ المأساة الـمُفْجِعَةِ في سوريا. تأسَّس المُخَيَّم عام 2012، ومنذ ذلك الحين بلغ عدد السكان الذين وفدوا إلى المخيم حوالي ربع مليون لاجئ. غادره مَن غادر، وبَقِيَ مَن بَقِيَ، غالبيَّتهم من محافظات درعا وإدلب وريف دمشق وحماة، وإن كان هناك أيضًا لاجئون من سائر المحافظات الأخرى، لكن بأعداد أقل. الطريق إلى الزعتري من قلب مدينة عمَّان –حيث الفندق

الذي تقيم فيه البعثة الحقوقية- خاوٍ مضجر. صحراء مُقبضة وجدب على مَدِّ البصر، وغبار لا ينقشع. جلسَتْ "ألما" في المقعد الأمامي المجاور للسائق كي تحادثه وتمازحه طوال رحلتنا. ألما لا تطيق الصمت لمدة خمس دقائق متَّصلة. وإذا لم تجد مَن تحادثه غَنَّت بصوتٍ عالٍ، وجلستُ أنا والدكتور "فولك" في المقعد الخلفي، وكُلٌّ مِنَّا يشيح بوجهه عن الآخر نحو الفضاء الشاسع والخواء والعدم والغبار. وضعتُ سماعة "الآيباد" في أذنيَّ، وتركتُ نفسي لإيقاع الموسيقى وسيارة الدفع الرباعي، وإيقاع آخر لصحراء تمتدُّ أمامنا، وكأن العالم كله قد تلاشى أو اخْتُزِلَ في لون واحد ومشهد واحد، وإن كانت له درجات عِدَّة متباينَة، كئيبة كلُّها.

وصلنا إلى المخيم بعد قرابة ساعة ونصف من القيادة، وبعد أن توقَّفنا مرَّةً لشراء زجاجات المياه المعدنية، ومَرَّةً أخرى لدخول دورة المياه في كافيتيريا على الطريق؛ تَحَسُّبًا لوضعٍ مجهولٍ داخل المخيَّم، لا نضمن فيه إذا كُنَّا سنستطيع استخدامَ دورات المياه هناك أم لا. عند البوابة الرئيسية استقبلنا مدير المخيم بترحيب مُبالَغ فيه، وابتسامةٍ عريضةٍ لَزِجَةٍ على وجهه، لا مُبَرِّرَ لها على الإطلاق في ظِلِّ كل ما يحيط بالمكان وسكانه. حاول أن يأخذنا لمكتبه أوَّلاً ليُطلعنا على مُجَسَّم المُخَيَّم، وتقسيماته، وخريطة الموقع، وطبعًا الجهود العظيمة التي تبذلها الحكومة، بالتعاون مع المؤسَّسات الدولية وهيئات الإغاثة، لاحتواء اللاجئين الذين يتزايد عددهم يومًا بعد يوم. فاجأتني مساحة المخيم الشاسعة: خيام وهياكل إنشائية مُتراصَّة على هيئة صفوف طويلة، لا تستطيع العين المجرَّدة أن

تبلغ مداها. يفصل بين الصف والآخر طُرُقٌ ترابيَّةٌ ورملية، غارقة في تَجَمُّعات المياه المتسرِّبة من الخزَّانات والحمامات، وكَسْحِ المجاري، أو ريِّ المساحات الخضراء الخجولة التي زرعها بعض اللاجئين بنباتات الكرفس والجرجير والزعتر، وبعض الخضروات الأخرى، في محاولة للتحايُل على نقص المواد الغذائية، أو رُبَّما لاستنساخ "حالة" حميمية في المكان، عَلَّها تُضفي عليه صفةً ومعنى في غياب كليهما، غير مدركين، أو ربما غير عابئين بمدى تلوُّث المياه، أو سلامتها لري هذه الزراعات. اعتذر الدكتور فولك بلطف لمدير المخيَّم، وأبلغه أن بِسَمْعِهِ عِلّةً، ولذا فهو يثق في عينيه أكثر ممَّا يثق في أذنيه. هكذا هو الدكتور فولك، يُرسلُ رسالةً حاسمةً حادَّةً كالنصلِ بهدوءٍ وثقة.

تجاوز الدكتور فولك السبعين بقليل. أستاذ قانون دولي، ومُقرِّرٌ خاصٌّ لحقوق الإنسان، وهب حياته دفاعًا عن المستضعفين في الأرض، من ميانمار لأمريكا اللاتينية لفلسطين، حتى أن قوات الاحتلال الإسرائيلي طردته عام 2008، ومنعته من دخول "أراضيها" طوال حياته! يتجاوز طوله المائة والثمانين سنتيمترًا، له ساقٌ أطول قليلًا من الأخرى، تُحْدِثُ "زكَّةً" خفيفة في مَشْيِه، وأحيانًا حين ينفعل أو يتأثَّر لا يستطيع أن يخفي ارتعاشة يديه. يميل الدكتور فولك على من يحادثه كي يعوِّض ضعف سمعه من جرَّاء سقوط قذيفة بالقرب منه، أخذت معها بعض المباني، وقوة سمعه، و"رولا".

لا يطلب من المتحدِّث تكرارَ ما قاله. يستند بيده على كتف محدثه، وكأنه يُثَبِّتُ مَرْساهُ على أرض صلبة، فتخرج كلماته وتقتحم الوجدان بلا مسافة جغرافية. مليء هو بالحكايات والأحداث، شاهدٌ على عصور وضحايا واستبداد، يكفي أن يستشعر في مستمعيه بعض الاهتمامات الإنسانية حتى يبدأ التحليق. بَوْحُهُ به قُوَّةٌ وعُنْفٌ وشجن، وحقائِقُ تصدم وتهزُّ الكيان، وتسحق ذَرَّاتِ البَدَن والروح، تخلع عنَّا كُلَّ أقنعة الزيف، وتتركنا عرايا أمام ذواتنا، عائدَة بنا إلى لحظة الخلق الأولى قبل أن نتعلَّم من الغراب درسنا.

بدأنا التجوُّل داخل المخيم لإلقاء نظرة سريعة عامة، ثم تقسيم الشغل فيما بيننا. علينا أن نلتقي خلال فترة البعثة –القصيرة نسبيًّا– بمجموعات مختلفة، نحاول أن تكون ممثِّلَةً صادقة قدر الإمكان لأغلب "مواطني" المخيم: النسوة والأطفال والشباب والعجائز والمعاقين. نتحدَّث معهم، ونصغي لهم، ونُوَثِّق إفاداتهم وشهادتهم عمَّا حدث هناك، وعمَّا يحدث هنا.

سِرْنا وسط شبه "زفة" صغيرة من أبناء المخيم. فتيات صغيرات جميعهن يُغَطِّين رؤوسَهُنَّ بِطُرَحٍ بيضاء، لا تختفي البسمة من وجوههنَّ، فتنيرها وتصبغ وجناتِهِنَّ بحمرةٍ تزيدُهُنَّ جمالًا على جمالِهِنَّ الواضح الوضَّاح، بالرغم من بساطة ملابسهن وقسوة الظروف ورداءة المكان. حازت ألما بشعرها الأشقر وعينيها الخضراوين بالقسم الأعظم من الابتسامات والترحيب، بل إن الأطفال كانوا يصيحون لها بـ"Hello, Welcome" ظنًّا منهم أنها أجنبية، وأحيانًا تتجرَّأ بعض الفتيات الصغيرات ويمددن أيديهن الصغيرة يُمَلِّسْنَ

على شعر ألما الأشقر، ثم يجرين مبتعدات تسبقهنَّ ضحكاتهنَّ الخجولة، فتجري خلفَهُنَّ وتقرص وجناتِهِنَّ بِمَحَبَّةٍ أصيلة، وطفولة أشد وضوحًا من طفولتهن الـمُغَيَّبة.

يجيء وقت تقسيم العمل، فتختار ألما -بالطبع- لقاءَ نسوة المخيم بمفردها؛ فهي الخبيرة بشؤون النساء، والضليعة في لهجاتِهِنَّ، والشغوفة بالاستماع للحكايات الحميمة. وللحَقِّ، كانت أَقْدَرَ مني على خوض هذا النوع من الحديث. جرأتها تشجِّع النسوة على الحكي والاسترسال، كما تعرف كذلك كيف تُمازِحُهُنَّ حين يتطلَّب الأمر، فتتلاشى الحواجز بينها وبينهنَّ بسرعة البرق، وسرعان ما تبدأ النسوة بالبوح لأُذُنَيْ ألما الودودتَيْن.

لم يَتَبَقَّ لي أيُّ خَيارٍ: سأذهب بمصاحبة الدكتور فولك للجزء البعيد الواقع على أطراف الـمُخَيَّم؛ لمقابلة مجموعة خاصة جدًّا من الرجال. هؤلاء التُّعَساءُ تعاسةً مُضاعَفَةً: فقدوا الوطن والبيت والأهل والأحِبَّة، وفقدوا أجزاءً من أجسامهم، أو بُتِرَتْ أطرافهم من جَرَّاء القصف الوحشي وسقوط البراميل المتفجِّرة. كان مَن الصعب إيواء هؤلاء الذين يحتاجون رعايةً خاصَّةً مع ذويهم وأسرهم في خيمة واحدة؛ لضيق المساحة داخل الخيمة، ولحاجتهم لمقاعد متحرِّكَةٍ للتَّنَقُّل والذهاب لدورات المياه؛ في حين لا تكفي المقاعد المتوفِّرة بحيث تسمح بمقعد لكل فرد، فكان الـحَلُّ هو عَزْلُ هؤلاء في أحد "الكراڤانات" الصفيح، التي جُلِبَتْ للمخيَّم في الأساس كمَحالٍّ لعرض السلع والبضائع، وتوفير مقاعد ذات عجل وعُكَّازاتٍ

وبعض أدوات المساعدة الأخرى، ليتشاركوها فيما بينهم وقت الحاجة إليها. "عزلٌ على عزلٍ!" فكَّرْتُ في نفسي، وكأنهم مجذومون! وكأن هذا العزل فيه راحة مشتركة للشخص ولأهله. في كل زمان ومكان سيكون هناك سبب ما لعزل الإنسان: مرض مناسب لعصره، أو حرب بلا سبب واضح تُميتُ الروح والأعضاء، وتُقَطِّع الأوصال.

وصلنا إلى الكاراڤان بعد مسيرة نحو ثلث ساعة داخل المخيَّم من خلال طرقات رملية مليئة بالحصى الكبير الخشن، الذي يكاد يخترق الحذاء الرياضي السميك ويجرح القدم. وجدنا بعض المقاعد التي صُفَّتْ، وبجانبها يقف مجموعة من الرجال، يتوسَّطُهُم شخصٌ تبدو عليه ملامح وسمات السطوة والتَّسَيُّد، ويبدو من هيئته أنه الآمِرُ النَّاهي وسط هذه المجموعة. بعد السلامات والتحيَّات والابتسامات والتعريف بنا وبالغرض من الزيارة، نادى "كبير القَعْدة" على "مصطفى". اندفع من آخر الكاراڤان رجل خمسينيٌّ بسيطُ الملابس، يقفز على ساق واحدة. يده اليمنى كاملة، واليسرى مبتورة من عند الكوع. جزعتُ من منظره! نظرتُ خلف مصطفى، فإذ بِعِدَّةِ وجوهٍ لرجالٍ متحفِّزين للمجيء عند أول إشارة.

جاء مصطفى، وقبل توجيه أي سؤال له رفع طرف جلبابه وبدأ يستعرض ساقه ويده المبتورتين. ظهرت كُتَلُ لَحْمٍ بُنِّيَةٌ داكنةُ اللون، مُغَطَّاةٌ بحراشيفَ من الجلد الجاف المتشَقِّق. اقترب منِّي، ووجَّه الحديثَ لي بصفتي المترجمة التي تتحدَّث لغتهم، وتنقلها للخبير الأجنبي، وبدأ يُعَدِّد الأجهزة التي

يحتاج إليها، كمقعد متحرِّك وطرف صناعي، وخيمة فسيحة وعُكَّازَيْن؛ فأيُّ زائر بالنسبة لأهل المخيم هو مانِحٌ مُحْتَمَلٌ، وبالرغم من أن هذا ليس الغرض الأساسي لبعثتنا، صِرْتُ أدوِّن قائمةَ الطلبات وأترجم للدكتور فولك بصورة آليَّةٍ، مُتحاشِيَةً النظر إلى مصطفى.

حدث كل شيء في غمضة عين. في اللحظة التي عرَّى فيها مصطفى جسده أمامنا تغيَّر المشهد فجأة، كما لو كان قد أعطى صافرة البدء لسباق كائنات كان لها هيئة آدمية في يوم من الأيام قبل اختراع الحروب. اندفعت المجموعة، وكُلٌّ يتسابق في تعرية ما كان جسدًا في أزمان سحيقة: عيونٌ استحالت فجواتٍ لا قرارَ لها، أبدانٌ بلا أطراف، وأطرافٌ بلا أصابع، حتى أن أحدهم رفع خرقة بالية تغطِّي نصفه السُّفْلِيَّ ليرينا قطعة جلد داكنة متدلِّيَةً صغيرة، تعجز أن تتخيَّل أنها اتقدَّت وانتفضت، وانتشت، وشبعت وأشبعت، وتركت في العالم نسلًا يستكمل مسيرة الحياة في يوم ما! تدافعوا جميعًا يلكزون بعضهم البعض كي يقفوا في الصفِّ الأمامي حيث مقعدي، حتى كِدْتُ أنقلب إلى الوراء، وكلٌّ يتبارَى في إظهار عِلَّتَه لي تحديدًا.

شَلَّتْنِي المفاجأة. رميت الأوراق والقلم، ونهضت من فوق المقعد الخشبي صارِخَةً. هبَّ الدكتور فولك واقترب مني. نظر إليّ نظرةً مُعاتِبَةً لائِمَةً، ومع ذلك لَفَّ ذراعه حول كتفي، وربت عليَّ ليهدِّئني ويوقف ارتعاشي. مال على أذني بِحُنُوٍّ بالغٍ، وهمس: "تمالَكِي نَفْسَكِ، رجاءً. هذه المقابلة في غاية الأهـمِّيَّة، سنوضِّح لهم الأمر دون وعود".

زعق الكبير فيهم، وقال عِدَّةَ كلمات لم أفهمها، وإن لم يَغِبْ معناها عنِّي، أشار لي الدكتور فولك أنه لا داعي لترجمة تلك العبارة. أخذني وهو لا يزال واضعًا يده فوق كتفي وضاغطًا عليها بقوة، وأجلسني على مقعدي بعد أن قرَّبه من مقعده، وأبعده قليلًا عن المكان الذي اندفع إليه الرجال، وألصق فخذه بفخذي؛ كي يمنحني بعض الطمأنينة.

رجعوا جميعًا لآخر الكاراثان متقافزين كما أتوا، متهامسين فيما بينهم. لم يخْفَ عليَّ رضاهم بحياتهم بالرغم ممَّا بهم، أغمضتُ عينيَّ كي أطرد منظر أجسادهم المُشَوَّهَةِ، وضحكاتهم غير المفهومة ولا المُبَرَّرَة، وأكملتُ المقابلة بأسلوب "الطيَّار الآلي".

أنهينا العمل في ذلك اليوم، وانضمَّت إلينا ألما. لوَّحتْ بدفترها الصغير وهمست لي ضاحكة: "اتسلِّينا كتير أنا والنسوان". ثم غمزت لي بعينها الخضراء وأضافت: "إيش قولك، مُعَدَّل المواليد بالمخيم أكتر من اللي كان بِكَم محافظة سورية قبل الحرب!". غادرنا مُخَيَّمَ الزعتري، وعدنا إلى الفندق. تركتنا ألما وتوجَّهت نحو المطعم مباشرة، بينما فضَّلتُ الصعود لحجرتي أوَّلًا والاغتسال، وعلى أية حال، لم يكن لي أي شهية للطعام. أصَرَّ الدكتور فولك على الصعود معي حتى باب الغرفة، ضغط بقوة على كتفي بكلتا يديه، ولم يتحدَّث ولكنه قبَّلَني على جبيني وتركني. اتَّجَهْتُ مباشرةً إلى الحَمَّام، خلعتُ ملابسي، ومددت يدي لفتح صنبور الدش، مررتُ أمام

المرآة الكبيرة التي تُغَطِّي حائطًا بأكمله في الحمام. رأيت تناسق جسدي: خصري النحيل، وأردافي الممتلئة، وصدري المشدود. شعرتُ بخجل شديد من اكتمال أعضائي، سارعتُ بزيادة سخونة المياه حتى يُخْفِي البخار شكلَ جسمي في المرآة. وقفت طويلًا تحت المياه الساخنة، واضعةً كلتا يديَّ على السيراميك، ومُسْتَنِدَةً برأسي عليهما، حتى احمرَّ جلدي من سخونة المياه.

خرجت من الحَمَّام، نظرت من النافذة المُطِلَّة على المطعم، فوجدتُ ألما تتناول طعامها، وأمامها كوب كبير من البيرة، ارتديت فستانًا فضفاضًا يُخفي تفاصيل جسدي، ونزلتُ إلى المطعم وقد تحمَّست لتناول الطعام، وربما لاحتساء مشروبٍ أقوى من البيرة.

* * *

4

النســاء الأربــع

تمرُّ الأيَّامُ برتابَةٍ شديدة، لا أقوى على بَتْرِ المَهَمَّةِ أو العودة لبلدي وبيتي. تزداد الكوابيس، وتشتدُّ حِدَّتها كُلَّ ليلة، أحاول تناسيها صباحًا قبل الذهاب للعمل، وأُسرع لمقهى سالوتِّه مباشرة بعد انتهائه. لم أتعرَّف على أصدقاء حتى الآن، حتى ألما زميلتي لم أفْلحْ في التقارُب معها، هي دومًا مشغولة بمواعيد غرامية فشلت في إقناعي بمسايرتها، ويبقى الصديق الوحيد لي هذا المقهى الكئيب.

هَبَّتْ ريحٌ قويَّةٌ، مُحَمَّلَةٌ برائحة الغار والزعتر البري والمريمية المزروعة

على شرفات المقهى. تحرَّكَتْ أفرع أشجار الزيتون البادية على البُعْدِ، فأطاحت بأوراق تقرير حقوقي عن أوضاع اللاجئين في المُخَيَّم يستعصي على الاستكمال، وواكَبَ ذلك الحدث غير الهام بالمرة دخول نساء أربع. كان ظهورهُنَّ صاخبًا، لافتًا لأنظار رُوَّاد المقهى، فأدرتُ رأسي لنفس الاتجاه الذي التفتت ناحيته رؤوس الموجودين.

لم تكن المرة الأولى التي أشاهدُهُنَّ فيها. لا شَكَّ أنَّهُنَّ نفس النسوة الأربع اللائي صادَفْتُهُنَّ يوم رحلتي لمنطقة "البتراء" السياحية، ولَفَتْنَ انتباهي أيضًا وقتها. كُنَّ يَتَحَرَّكْنَ كمجموعة صغيرة غير متجانِسَةٍ، وعندما شرح مُرْشِدُ رحلتنا أن المنطقة معروفة بالجِمال والحمير والماعز والجياد؛ فَكَّرْتُ أن الأربعةَ خيرُ مَنْ يُمَثِّل هذه المخلوقات، وخلعتُ وقتها على كل واحدة لقبًا يناسب طريقتها في المشي والحديث؛ قَتْلًا للوقت والضجر: "المُهْرَة"، كانت أكثرهنَّ صَخَبًا ونشاطًا وحيويَّةً، وتبدو أَصْغَرَهُنَّ كذلك، رغم أنه من الواضح أنهنَّ جميعًا قد تجاوزن الأربعين بكثير. ارتدت المُهْرَة بنطلونًا من اللون البيج، تحت الرُّكْبَةِ بقليل، وچاكت تريكو أبيض خفيفًا، سرعان ما خلعته وربطته على خصرها، وظلَّت بـ"توب" بيچ بحمَّالات رفيعة يُظْهِرُ صدرها المكتنز وذراعيها البضَّتَيْن. الثانية استحقَّت صفة "العنزة" عن حق؛ كانت صغيرة الحجم، قصيرة الشعر بصورة مبالغ فيها، تبدو من الخلف أقرب للذَّكَر منها للأنثى، سريعة الحركة وكثيرة الالتفاتات، وتسير دائمًا بالقرب من المُهْرَة الفتيَّة كما لو كانت تابعًا مُخْلِصًا لها. الثالثة كانت سيِّدَةً

في أواخر الأربعينات أو بداية الخمسينات، تغطِّي رأسها بطرحة من اللون الأزرق الفاتح تتزحزح باستمرار إلى الخلف، وتظهر خصلاتٌ من شعر أشقر لا تَخْفَى نعومته وكثافته على مُسْتَرِقِي النَّظَرِ الذين يتوقَّفون لحظاتٍ أمام بياض بشرتها وزُرْقَة عينيها. تسير دومًا خلف المجموعة وهي منشغلة بجذب الطرحة للأمام وإخفاء خصلة شعرها الشاردة المتمرِّدة على القيد الحريري، خافضةً رأسها لأسفل كما لو كانت تبحث عن شيء ما ولا تعثر عليه أبدًا. احترتُ في منحها لقبًا، ربما "الأَتَانُ" يناسبها، لكنني أَسْمَيْتُها "المُحَجَّبة". أما الرابعة فكانت "ناقة" فارِعَةَ الطول، متجهِّمَةَ القسمات، تحمل حقيبتيْن: كل واحدة على كتف، وتمسك بِكُتَيِّبٍ في يدها، وتنتعل حذاءً رياضيًّا عريضًا من الأمام وتسير ببطء شديد وهي تطأ الرمال بقوة وثبات، فَبَدَتْ -حقيقةً- كجمل أو ناقة تُثَبِّتُ خُفَّيْها في صحراءَ تعرف تضاريسها تمام المعرفة.

هُنَّ أنفسهنَّ أمامي الآن. جلسن على الطاولة المجاورة بصخب. خلعت المُهْرَة شالاً خفيفًا فبدت ذراعاها المكتنزتان وجزءٌ لا يُسْتهانُ به من صدرها الوفير، رَمَتْ الشَّالَ بلا اكتراث على الطاولة القريبة منهنَّ في حركة مسرحية مَرِحَة، وجلست بعد ضحكةٍ مجلجلةٍ. جلستْ الأخريات بهدوء شديد بخلاف نشاط رابعتهنَّ. طلبن بيرة وعصيرًا وصحنًا من الفشار أو "البوشار" كما ينطقونه، وفردن أوراق "الكوتشينة" على الطاولة، وانهمكن في اللعب.

اليوم الأربعاء. يَجِئْنَ في نفس اليوم من كل أسبوع، في نفس الساعة، ويجلسن على نفس الطاولة ذات الإطلالة الرائعة على الوادي الممتدِّ. دائمًا هُنَّ هذه الطاولة التي يبدو أن العاملين في المقهى يحجزونها لَـهُنَّ بصفة دائمة، حتى في الأيام اللائي لا يجئن فيها؛ تَحَسُّبًا لظهورهنَّ المفاجئ في وقت متأخِّر من الليل. حاولتُ كثيرًا في المرَّات التي كنت أسبقهنَّ للمقهى أن أجلس في هذا الموقع المُمَيَّز. لكن قُوبِلَت كلُّ محاولاتي مع الجرسونات بفشل تامٍّ، مهما كانت الإغراءات: مَرَّةً بإكرامية سَخِيَّة، وأخرى باستعطاف وإظهار إنهاكي الشديد بعد يوم عمل طويل وشاق، لعلَّ قلوبهم تَرِقُّ لحالي ويسمحون لي بالجلوس هناك، وثالثة بصياح وتهديد باستدعاء المدير، لكن دون طائل. أنظر إليهنَّ بِحَسَدٍ لا أعرف إن كان سببه فوزهنَّ بطاولة ذات إطلالة متميِّزة في مقهى صغير، أم أحسدهن لأنهنَّ جَمْعٌ وأنا مفرد، يعرفن بَعْضَهُنَّ وأنا نَكِرَة، يسمعن بعضهنَّ وأنا لا أسمع سوى طنيني الداخلي الذي لا يُؤْنِسُ بِقَدْرِ ما يُسَبِّبُ صداعًا نصفيًّا وكُلِّيًّا! تتعالى أصواتهنَّ وتتداخل مع رائحة البيرة الذهبية ورذاذ رغوتها و"خبط" أوراق "الكوتشينة" على الطاولة الخشبية. أُنْصِتُ إليهنَّ بِشَغَفٍ، وأفسح لنفسي مقعدًا افتراضيًّا خامسًا على طاولتهن، وموقعًا في حكاياتهنَّ التي تترامى بعض تفاصيلها إلى سمعي، فأكملها حسب مزاجي لاحقًا.

* * *

5

ألـمـا

"بَقُص إيدي من هون إذا أبوكي بِسامحك"

تطِنُّ كلماتُ أمي في أذني، وتعلو على أزيز الطائرة.

على متن الطائرة الـمُتَّجِهَة من نيويورك لفرانكفورت، على مقعدي في الدرجة الأولى تردَّدتُ بين لحظات الإفاقة والغياب. أرفع غطاء الكُوَّة الصغيرة على يميني، التي تبدو كثقب مفتاح في باب كبير موصَد، أو فتحة فَرْج قبل المخاض، وأنظر بين الحين والآخر ربما يتغيَّر المشهد وأرى علامةً توضِّح بأي سماء نمُرُّ.

"ما بتمر الساعات، وما بينتهي الضجر". أُحدِّثُ نفسي. أخيرًا حملتُ جوازَ سفرٍ أمريكيًّا. "عن چد صرت أمريكية!" مرحى مرحى. ربما تُبَدِّد هذه الوثيقةُ كآبةَ الذكريات وتمحو الأليم منها، وتستدعي مستقبلًا أقلَّ إيلامًا. لطالما سجدتُ لإلهٍ لا أثق فيه لأنني لم أحمل ملامح أمِّي الحَلَبِيَّة، ووُلِدْتُ أُشْبِهُ أبي الفلسطيني، رغم حنقي من هويَّته التي ورثتها، في مدينة تنظر إلينا كلاجئين ضيوف، لا نعرف ولا يعرفون متى تنتهي استضافتنا. شددتُ الرحال لبيروت لاستكمل دراستي في الجامعة الأمريكية. وهناك، ذاكرتُ واجتهدتُ وعملتُ بقلب ورَبٍّ، حتى حصلت على شهادة في "الدراما ثيرابي"، أو العلاج بالدراما، وظلَّت لعنة الهويَّة تطاردني إلى أن سافرت لأرض الأحلام على أمل أن أخرِجَ لساني للقدر، وأحصل على دفتر أزرق داكن صغير يفتح لي عنوةً الأبوابَ التي طالما غُلِّقت أمامنا بسبب وثيقة سفر تُقِرُّ بمواطَنَةٍ بلا وطن وتفرض علينا عيشة اللجوء أينما وَلَّيْنا وجوهنا. خلال وجودي في أميركا استطعت أن أحظى بعمل بمرتَّبٍ جيِّد مع إحدى المنظَّمات الحقوقية الأممية كمعالِجَةٍ نفسية للاجئين تساعدهم على الاندماج في مهجرهم الجديد، سواء المؤقَّت أو الدائم، لاجئة تساعد لاجئين، قمَّة العبث، أليس كذلك؟ نجحتُ بعد عدَّة سنوات في الفوز بـ"الجرين كارد"، واستقرَّيْت في وطنٍ جديدٍ منحني جوازَ سفرٍ وحقوق مواطنة ووظيفة لائقة دون الالتفات لهويَّتي السابقة، وقرَّرْتُ ألَّا أعود لمهجر فُرِضَ عليَّ، وأن أستقرَّ في مهجرٍ اختياريٍّ.

تتوالى السُّحُب خارج الطائرة، لم أعد أعرف فوق أي مدينة نطير.

أتذكَّر رحلاتي بالقطار بين حلب ودمشق. أعرف أي ضاحية وصلنا إليها، أي قرية وأي ضيعة يتجاوزها السائق في عُجالَةٍ أو بطء. يُطلق نفيرًا مزعجًا إذا مررنا بكفر فقير، ويضحك كلُّ مَن في القطار لرؤية البسطاء الذين يفترشون رصيف المحطة أمام أقفاصهم المَجْدُولة من الخوص عندما يباغتهم صوت القطار الحادُّ، ونفيرًا أقل حِدَّة إذا ما اقتربنا على رصيف ضيعة معروفة بثراء أهلها. أتبيَّنُ المكانَ قبل أن أقرأَ الاسم على اللافتة المتواضِعَة، من ملابس المسافرين وسِلال الباعة وبضائعهم والكتابة الركيكة على الجدران. هنا، بين سحابٍ مختلف متشابه، تضيع الملامح وأسماء المدن ويغيب صوت النفير.

اخترقَت الطائرةُ السحابَ الكثيف. نظرتُ من زجاج النافذة فاقشعَرَّ بدني من بياض الثلج. أحكمتُ البطانية الناعمة حول فخذيَّ. نفختُ في الزجاج فتكاثف البخار عليه، رفعتُ أصابع مرتعشة وكتبت بسبَّابتي:

"ف ل س... ثم مسحتها في عجالة".

صوت أمي كان قريبًا بعيدًا باردًا كالسحاب الذي نخترقه الآن. جاءني وأنا في ورشة عمل للعلاج بالدراما أشرح للحضور من لاجئين ولاجئات مَوَاطِنَ الجمال في قصيدة محمود درويش: "والآنَ أَشْهَـدُ أَنَّ حُضُورَكَ مَوْتٌ، وَأَنَّ غِيَابَكَ مَوْتَانِ".

"لوما. أبوكي مريض. فيكي تزورينا وتلتئي فيه، عندك إچازات؟ اللوز الأخضر والملح مالو طعمه بَلاكي"

نفس الحوار الذي يتكرَّر منذ عشرين عامًا، منذ أن غادرتُ حلب وأنا في السابعة عشرة من عمري، فأرُدُّ دون تَرَدُّد:

"بَكِّير. بَكِّير لسه ما بَقْدِر ماما". أتعلَّل بالشُّغْلِ وورش العمل أو الدورات الصيفية الإضافية كي أبرِّر انشغالي، وعدم قدرتي على العودة إليهم في الإجازات.

كيف سأنظر في عَيْنَيْ أبي بعد كل تلك السنوات إذا ترفَّقَ القَدَرُ بي وبه وانتظرني حتى أعود؟

سارعتُ إلى مكتب حجز التذاكر، هَزَّت مسؤولة الحجز رأسها نفيًا، لا يوجد بطاقات على الدرجة السياحية، ولا يوجد بطاقات على الرحلة المباشرة، حجزتُ بطاقة على الدرجة الأولى التهمتْ جزءًا كبيرًا من بطاقة ائتماني من نيويورك إلى فرانكفورت، فرانكفورت القاهرة ثم القاهرة دمشق.

قبل عشرين عامًا ذهبتُ إليه في حجرته:

"بابا. أنا رَحْ سافرع أميركا. بِدّي بوِّس إيدك وتكون راضي عني"

لم يلتفت إليَّ، أدار ظهره، أطلَّ للشرفة والحديقة. نفث دخان سيجارته تمامًا كما نفثت زفير صدري على كُوَّة الطائرة فتكاثف البخار على الزجاج. مَدَّ سبابته وكتب بخط مرتعش:

"ف ل س ط ي ن ي ة"

لم يغفر لي إذن.

جـاءت عَمَّتي إلى دارنا في حلب قبل سـنوات طويلـة تحمل لنا اللوز الأخـضر ولفافات الملح التي نغمسـها فيه. حملتني عـلى فخذيْها، رفعَت خصلات شعري الذهبية من فوق جبيني وقبَّلَتني. تبادَلَت بعض العبارات مع أمِّي، وامتدحت جمال وجهي وعينيَّ الخضراوين اللتين تشبهان عيْنَيْ أبي وعينيها، شاكِرَةً الرَّبَّ أنني لم أَرِثْ ملامح أمي السوريَّة.

لا زلتُ أذكر علامات الامتعاض التي ظهرت على وجه أمي، لكنها لزمت الصمت.

تنتمي أمي لعائلة حلبية ثرية، لكنها كانت أقلَّ أخواتها حظًّا وجمالًا، لم يتقدَّم لها شابٌّ سوريٌّ ثَرِيٌّ كأخواتها، ولَمَّا تأخَّرَت في الزواج، بخلاف شقيقاتها الأصغر منها اللائي كن يفُقْنَها جَمالًا، اضطرَّ الأبُ -على مَضَضٍ- الموافَقَة على زواجها من أبي الفلسطيني، رغم معارضة جميع أفراد عائلته.

انضمَّ والدي إلى أسرة تُكِنُّ له العداء مسبقًا، ومعه بضع ليرات في حسابه، ووجه كالقمر، وأخت سليطة اللسان، لم تُفلت مناسبة إلا وذكَّرت أمي بأن حُسْنَ طالعها أوقعها في زوج يشبه نجوم هوليوود؛ في إشارة واضحة لملامح أمي المتواضِعَةِ ومحاولة إذلالها كي تضمن ولاءها لأبي وعدم تعاليها عليه، بالرغم من وضعه كلاجئ فلسطيني.

أعطتني عَمَّتي بضع حبَّات من اللوز الأخضر بعد أن غمستها في لفافة الملح وسألتني:

"أعطيتي المصاري لأبوكي ماما؟"

رفعت أمي رأسها وتساءلت:

"مِصرات! أي مصرات؟ ما عطتنا شي!"

هذا ما كنتُ أخشاه، انكشف السرُّ. جاء مسؤولو وكالة غوث وتشغيل اللاجئين المعروفة باسم "الأونروا" إلى الصفِّ، وطلبوا من التلاميذ الفلسطينيين رفع أيديهم كـي يحصلوا على منحة التعليم المقـرَّرة لِلَّاجئين. رفعت ابنة عَمَّتي يدها ونظرت إليَّ، تجاهلتُ نظرتها ولم أرفع يدي، اخترتُ أن أكون سـوريَّةً، لا حاجة بنا لهذه المنحة ونظرات رفيقـاتي لي. كُنَّ يتحلَّقْنَ حول الفلسطينيات أوقات الاستراحة ويغنِّين: "فلسطين، فلس وطين"، فأشاركهنَّ سَـبَّ الفلسطينيات كي لا ينكشف أمري، وكُلُّ مَن يسألني عن جنسيَّتي أسارع بالرَّدِّ: "أنا سورية".

تغيَّر وجه أمي ونادت على أبي بأعلى صوتها:

"تعال اسماع. بنتك ما رفعت إيدها ولا قالت إنْها فَلَسطينية!"

بدأت الـحُمْرَة تزحف على وجه أبي تدريجيًّا حتى احتقن تمامًا. جَزَّ على

أسنانه كعادته عند الغضب، جذبني بقوة من فوق حِجر عمتي فتناثرتْ حبات اللوز على الأرض والملح على فستاني. جلس على المقعد الهزَّاز المجاور للنافذة وأحاط وجهي المضطرب بِكَفَّيْه الدافئتين وهو يَـهُزُّ المقعدَ بوتيرة تتصاعد حِدَّتُها مع كل كلمة من كلماته:

"لوما بابا ليش؟ ليش ما قلتي في الصف إنك فَلَسطينية؟"

تحاشيتُ النظر إلى عينيه.

"نِحْنَا أغنيا، مُو هِيك؟ مَنَّا محتاچين مصاريهن"

"صحيـح بابا، مَنَّا محتاچـين مصاريـهن. بـس محتاچيــن هُويـتـنا. أنا فلسـطيني، وانتي فلسـطينية، ورَحْ نرچع لوطننا وتـربِّي ولادك هناك في بيت چدك. رَحْ تسـقي بإيدك شـچر الزيتون اللي رَحْ يلعبوا اولادك تحته مِتِلْ ما لعبنا احنا لـَمَّا كِنَّا زغار".

آلَـمَنِي وجهي من ضغط كفَّيْه. ابتعدتُ قليلًا عنه وقلت في تَحَدٍّ:

"ما حقول بالصف إني فَلَسطينية، كل رِفقاتي بيعرفوا إني سورية، راح يبيـِّن إني كنت عم كَذِّبْ عَلِيهُنْ"

نظر أبي إلى أمي وعَمَّتي، صمت برهة، زفر بصبر نافِدٍ وقال:

"شوفي بابا. بكره بتروحي ع المدرسة، وبتُوقَفي بوسط الصف وبتقولي أُدام المِعَلْمة وبنات صفك: "أنا فلسطينية وما بِدِّي مصاري الأونروا."

ولما بترجعي ع الدار رَح أعطيكي ضعف مصاري الأونروا"

"لا." صرخت في وجهه.

"لا." صرخت في وجه أمي.

"لا." صرخت في وجه عَمَّتي:

"أنا مو فلسطينية، أنا سورية."

عشر سنوات مَرَّت منذ هذه الحادثة. لم يخاطبني أبي بعدها، ولم أعلن عن هويتي بين رفيقاتي رغم يقيني أنهنَّ يعرفن. حاولتُ الحديث معه، حاولتُ الاعتذار، تدخَّلَت أمي وتدخَّلَت عمَّتي، ولم تفلح المساعي كافَّةً. شرطه الوحيد لمخاطبتي والصفح عني اعترافٌ لا أقدر عليه، وظللنا هكذا سنوات حتى غادرت البيت في طريقي لأميركا للدراسة والنسيان. ولجنسية لا هي فلسطينية ولا هي سورية.

أضاءت إشارةُ رَبْطِ الأحزمة وبدأ بياض الثلج ينقشع تدريجيًّا تاركًا المكان لِلَوْنٍ أخضر أكثر دفئًا، ولمذاقٍ مالِحٍ بعيد. جاءت المضيفة تبتسم وفي يدها بطاقات الدخول. نظرت إلى ملامحي الأجنبية وقالت بالإنجليزية واثقة من صِدْقِ فَراسَتِها:

"American citizen?"

هززت رأسي نفيًا، ورددت بلكنة أبي التي طالما اجتهدت لإخفائها:

"ف ل س ط ي ن ي ة"

ها أنا الآن بين أهل أبي وأهل أمِّي في مُخَيَّم الزعتري، لا أستطيع ولا أرغب في إنكار هويَّتي، بل سارعتُ لتقديم نفسي لزميلتي وللدكتور فولك حين تعرَّفْتُ عليهما: "ألما عبد الكريم، فلسطينية جاءت طَوْعًا للعمل في المخيَّم بين خالاتها وأخوالها".

* * *

6

الشـانزيليـزيـه

يأتيني ظِلٌّ كُلَّ ليـلة قبل أن أخلدَ للنـوم. يداهِمُني خـلال تلك اللحظات القصيرة جدًّا والطويلة جدًّا، حين أفقد مقاومتي مُكْرَهَةً، ويبدأ خَدَرٌ خفيف يزحف على أجزاء جسدي تدريجيًّا. أبدو كمحارب إغريقي يتجرَّد من سُتْرَتِه الحديديَّة، وخوذته، ودِرْعِه بعد أن يعود مهزومًا من حلبة الصراع. تلك اللحظات الضبابيَّة التي يبدأ فيها العقل استسلامًا قاوَمَه طويلًا خلال ساعات يَقَظَتِهِ. ظِلٌّ يأتيني. يبدأ صغيرًا أوَّلًا وأنا مُسَجَّاة أمامه على الفراش، بقعة تكاد لا تبين، ثم تأخذ في التمدُّد والاتِّساع تدريجيًّا. أتقلَّب على سريري

كسمكة صغيرة اصطادوها توًّا من البحر، وألقوا بها في وعاءٍ من الجريد انتظارًا لنار تتلظَّى فوقها، أُديرُ له ظهري، أنامُ على جانبي الأيمن في مواجهة الحائط حتى أتحاشى مواجهته، أظلُّ مشلولةً بلا حراك، بينما يتشكَّل أمامي على الحائط ويصبح كامِلَ الهيئة، وإن كان بلا ملامح واضحة، أو بالأحرى بلا ملامح أعرفها أو جنس أتبيَّنُه. يرتدي -أو ربما ترتدي- عباءة داكنة فضفاضة من الرأس حتى القدمين، أو الأقدام. أُضَيِّقُ الحدقتين كي تقوى قدرتي على الإبصار في الظلام، وأتبيَّن كُنْهَ هذا الكائن أو طبيعته المُسْتَتِرَةَ تحت العباءة. يقتحمني الظل/ الحلم/ الحقيقة، ويستبيحني، يُقرِّبُ يدًا داكنة تمسك بسكين صغير بيد خشبية بُنِّيَّة اللون ذات مسامير فضيَّة لامعة تبدِّد ظلام الحجرة رغم إرادتي؛ ربما كي لا تفوتني أيَّةُ تفاصيل مهما كانت صغيرة، تطعنني في الجزء الخلفي من رقبتي، مُحْدِثَةً ثُقْبًا مؤلمًا، ثم تبدأ ببطء شديد في توسيع الثقب كما لو كانت اليد لجَرَّاحٍ بارع، أو نَحَّاتٍ يحاول أن يُجَمِّلَ عملًا فَنِّيًّا بين يديه. أتحسَّسَ رقبتَي في نفس مكان الطعنة فأشعر بألم عظيم. أحاول الصراخ فلا يترك الصوتُ الحنجرةَ، تمتدُّ ذراعٌ من تحت العباءة ناحية الجانب الملاصق لي، ويظهر النصل اللامع. أحاول بدوري أن أرفع يدي كي أعترض اليدَ والسكين. تخذلني يدي كما خذلني صوتي من قبل، أفلح فقط بصعوبة بالغة في إحكام لَفِّ الشال الصوفي حول رقبتي، ذلك الشال الذي واظبت على ارتدائِه بعد اليوم الأول الذي بدأتْ فيه زيارتنا للمخيم، وبعد أن بدأ الظلُّ زيارتي، غير مُلتَفتةٍ لجَوِّ الحجرة الخانق والعرق الغزير

الذي يتصبَّب كصنبور معطوب على جبيني، من جَرَّاء نوبات الصَّهْدِ التي تزايدَت وتيرتُها، واتَّسَعَت رقعتها الزمنية. تَثقلُ جفوني أخيرًا وأغرق في نوم قَلِقٍ متقطِّعٍ لا يُفْقِدُني إحساسي بالطعنات المؤلمة.

أنهض من سريري وأرتدي ملابسي وأتوجَّه للمُخَيَّم مع ألما. غاب الدكتور فولك اليوم لنوبَةِ بَرْدٍ شديدة ألزمته الفراش، ولَمَّا اتَّصل بي ليسأل إذا كنت أستطيع التوجُّهَ للعمل دونه، لم أشأ أن أعتذر بالرغم من وطأة الزيارة التي خَلَّفت ألمًا شديدًا في رقبتي هذه الليلة.

افترقت أنا وألما عند مدخل الزعتري، ذهبت هي لنسائها وبوحِهِنَّ، واتَّجَهْتُ أنا لمنطقة الشانزيليزيه.

بعض الجهات المانحة قدَّمَت ألواح الزنك والقصدير والأخشاب لتدعيم خيام اللاجئين من الداخل والخارج، قبل دخول فصل الشتاء الذي تنخفض فيه الحرارة في هذه المنطقة الصحراوية عن الصفر بدرجات، ويهطل عليها المطر والبرد والثلوج بغزارة. ولأن "التجارة شطارة"، والحي أبقى من الميِّت، تحوَّلَت هذه الألواح لكاراثانات تُباع وتُشترى بأسعار باهظة! اشتراها المُوسِرون والمنتفعون والانتهازيُّون، ومَن لهم "تربيطات" مع بعض تُجَّار الجُمْلَةِ من البلد المضيف، وتحديدًا من مدينة المفرق القريبة منه. رُصَّتْ المَحال والدكاكين التجارية في صفوف طولية على منطقة شاسعة بالقرب

من الباب الجانبي للمستشفى الفرنسي عند البوابة الغربية للمخيَّم. ونظرًا لهذا الجوار الجغرافي، ولعرض البضائع من مختلف الأشكال والألوان، وربما لسببٍ آخر نفسيٍّ، أطلق اللاجئون على هذا الشارع "الشانزيليزيه". وكما يتحوَّل الشَّرَرُ الصغير لنيران هائلة حين يجد الظروف المواتية، تحوَّلت هذه المنطقة لصورة مُصَغَّرَةٍ عشوائيَّةٍ بَشِعَةٍ لأي حيٍّ تجاريٍّ في سوريا. بدأت المنطقة أوَّلًا بكاراثان أو اثنين، وكل يوم يُضاف إليهما المزيد، حتى بلغ عدد المحال والدكاكين نحو الأَلْفِ، آخِذَةً في الزيادة كل يوم، أَضِفْ إلى ذلك بعض المحال الأخرى المصنوعة من الخيم القماش، والفَرْشات الأرضية، والأقفاص التي تحوَّلَت لطاولات لعرض السلع والبضائع أو تقديم الخدمات، تقبع جميعها راضيةً مُرْضِيَةً مجاوِرَةً وملتصقة ببعضها في انتظار الزبائن.

كلُّ شيءٍ تقريبًا متوفِّرٌ في منطقة الشانزيليزيه، نادرًا ما يحتاج المقيمون لشيء ولا يجدونه. تجوَّلْتُ في المكان وفي مُخَيِّلَتي صورة باريس وبرج إيفيل في الخلفية، يقف كعملاق هائل له رأس صغير ولسان ضخم طويل كلسان التِّنِّين يُخْرِجُه في وجوهنا. كانت المنطقة مزدحمةً بالباعة والزبائن، بأُمَّهاتٍ يشترين قوت يومهنَّ، وأخريات يعرضن منتجاتهن اليدوية أو بعض الوجبات التي أعددنها في مُخَيَّماتِهِنَّ ويَبِعْنَها للعُزَّاب الذين لا يجيدون الطهي، أو لبعض الأسر المُستَجَدَّة على المخيَّم، التي لم تتوفَّر لها بَعْدُ مواقِدُ الغاز

لإعداد طعامها، والنسوة اللائي جِئْنَ لِرَهْنِ قرطٍ أو خاتم لتوفير بعض النقود، والشباب والرجال الذين ليس لديهم ما يشغلهم سوى الجلوس على المقاهي المنتشرة للعب الطاولة والحديث عن الأوضاع المتردِّية في بلادهم، أو إبرام صفقات بيع أو شراء أو الاتفاق مع بعض السماسرة والمُهَرِّبين لتسفيرهم لإحدى الدول الأوروبية أو لتركيا؛ أيُّهما أَيْسَرُ، أو ربما لمراقبة الفتيات المتردِّدات على السوق لاختيار زوجة المستقبل. تفقَّدتُ أسماء الدكاكين قبل أن أختار أيَّها سأتوقَّف عنده لأجري حوارًا مع صاحبه ومع المتردِّدين عليه للتَّعَرُّف على الأحوال والوضع داخل المخيَّم بصفة عامة، وداخل السوق بصفة خاصة: "كافيه" سوق الحميديَّة، مصوغات العروسة: الشَّبكْة عنَّا والضامن رَبْنا، صالون الفرح لتجميل السيدات، صرافة النجاح، ديما لشراء وتأجير أرواب العرس، حلَّاق النهضة، يَمال الشام للحلويات، شاورما أبو مازن، مرطِّبات وبوظة أبو كريم، صوت الحبايب للهواتف النقَّالة، بعدك على بالي لسيديهات الموسيقى والفيديو، إلى جانب مئات المحال الأخرى التي تعرض الخضروات والفاكهة واللحوم وتصليح الأحذية والحياكة والفيديو جيم وقهوة جحا.

يا الله! "قهوة جحا"، هنا، وفي هذا المكان! ما أشبه الليلة بالبارحة! كأن الحادث المشؤوم في القهوة التي تحمل نفس الاسم في مدينة حلب لم تمرَّ عليه سنوات.

اختفى المكان، تبخَّر، ضاع. تلاشت "قهوة جحا" وسط المدينة. مررتُ عليها في الصباح، تناولتُ قهوتي، تبادلتُ بضع كلمات مع "الحاج فؤاد"؛ حيث كان يجلس بوجهه البشوش وكرشه الضَّخم وعشقه للمصريين. أتحدَّث معه وأهدِّئ روحي بأغاني "الست سومة" التي لا يتوقَّف مُسَجِّلُهُ عن بَثِّها طوال اليوم، وأستفسر منه عن بعض الأحداث والعلاقات المرتبكة التي يُعْيِيني فَهْمُها منذ وصولي لمدينة حلب. وبينما يُجيب بترحيب واستفاضة، أسرح بخيالي بعيدًا، وأجرِّده من ملابسه وأُسائل نفسي: أيُّ وَضْعٍ يتَّخذه أثناء لحظاته الحميمة! عادَةٌ اكتسبتُها ولا أستطيع التَخَلُّصَ منها، تمامًا كالتدقيق في أرقام اللوحات المعدنية في السيارات التي تمرق أمامي في شوارع القاهرة. أستعرض جميع الأوضاع التي أعرفها ولا أجد من بينها ما يصلح للحاج فؤاد. وعندما أراه في الصباح منتعشًا مبتسمًا هانئًا –رغم الدَّمار– أُوقِنُ أن "الحاجة أم الاختراع".

ذهبت إلى عملي، وعدتُ مساءً. كان المقهى، درة حلب قد اختفى بـ"الحاج فؤاد"! والمقاعد الخشبية، وروَّاده الذين تصادَف وجودهم وقت الانفجار، وقهوته "التركي" طَيِّبَة المذاق "المحوَّجة" بجوزة الطيب والحبَّهان، ورغوتها البُنِّيَّة الكثيفة ورائحتها الحميمة وصوت أم كلثوم. طال المقهى الطعناتُ من كل الاتجاهات، ومَن يشاهد أرضية المقهى سيَظُنُّ أن القذائف جاءته أيضًا من الأسفل. اختفى المقهى، واحتضن معه في طريق الغياب الفندقَ المجاوِرَ، ومُزِيلَ العرق، ومرآتي الصغيرة ذات الإطار الفِضِّيِّ التي أهداني إيَّاها "علي" في عيد ميلادي، وحَجَر القدمين، وغرفتي بأكملها، التي كانت في الطابق الثالث من الفندق المُطِلِّ على الميدان وعلى "قهوة جحا".

توقَّفْتُ عند المقهى في الشانزيليزيه، أجريت بعض الحوارات مع أمٍّ لعروس جاءت تُؤَجِّر فستان الزفاف لابنتها، تحسَّرَتْ على أيام الشام ولياليها، لكنها بدت سعيدة بالفستان الذي حصلت عليه لعدة ساعات نظير عشرة دنانير، فهو سوري الصناعة والتطريز في نهاية المطاف، ومع أخرى ذهبت لِتَرْهَنَ أسورتها الذهبية وتحصل على بعض المال لتُطْعِمَ أطفالَها بعد مقتل أبيهم في الوطن، انتظارًا لوصول أموال لها من الأقارب ثم تأتي لفك "الرهنيَّة" واستعادة ذهبها. تحدَّثتُ كذلك مع "الست ديما" صاحبة صالون التجميل. انتعش حال الصالون في الآونة الأخيرة، أصبح يستقبل الزبونات من التاسعة صباحًا حتى التاسعة مساءً، يذهبن لتصفيف شعرهنَّ وصَبْغِه، أو تزجيج الحواجب أو نزع الشعر، وبالرغم من براعة المرأة السورية في عمل عجينة السكر لِنَتْفِ الإبط والشعر الزائد، إلَّا أن ضيق المكان وتواجُدَ جميع أفراد الأسرة في خيمة واحدة يُصَعِّب من القيام بهذه المهمة داخلها، فأصبحن يلجأن للصالون. كانت صالونات التجميل في سوريا تزدحم بصورة استثنائية أيام الأعياد والعطلات ومواسم الأعراس وأيام الخميس التي تتبارى فيها السيدات في التزين والتعطُّر لأزواجهنَّ قبل ليلة الوصال، أما في المخيم فقد أصبحن يَتَزَيَّنَّ كلَّ يوم، فالوصال بات هو العمل الوحيد الدائم للرجال داخل المخيَّم، وشُغْلَهُم الشَّاغِل.

كانت الساعة قد تجاوَزَت الخامسة مساءً عندما تلقَّيْتُ اتِّصالًا هاتفيًّا

من ألما تخبرني بأنها انتهت من مقابلات اليوم، فطلبتُ منها أن تلتقيني عند مقهى جحا في شارع الشانزيليزيه كي نعود سويًّا إلى الفندق. اكتفيت أنا أيضًا بهذا القدر من الحوارات مع المارَّة وأصحاب المحال، دخلت المقهى أنتظر ألما. جلست على طاولة بالقرب من المدخل تحت لافتة مُعَلَّقَةٍ ومكتوب عليها بخط اليد "كلُّ مدينة لا تُعرفُ من رائحتها، لا يُعَوَّل على ذِكْراهَا!". طلبتُ كوبًا من الشاي الأخضر بالمريمية، وتطلَّعْتُ بعينيَّ في أرجاء المقهى، عَلَّنِي أَجِدُ طَيْفَ الحاج فؤاد في أرجاء المكان.

* * *

7

أربعاء المونوپوز

تمر الأيام داخل المخيَّم بحكاياته ومآسيه، وفي غرفتي في الفندق أستعيدها مرَّةً أخرى وقت كتابة التقرير. بِتُّ أنتظر يوم الأربعاء بِشَغَفٍ وقلق لا أفهم سببهما. أصبحتْ أحداث الأسبوع بالنسبة لي مُعَرَّفَةً بهذا اليوم الغامض ومنسوبةً إليه؛ صار الأربعاء هو "خط جرينتش" الزماني بالنسبة لي: زيارة للمكان الفلاني قبل الأربعاء بيوم، غسيل الملابس في مغسلة الدوّار الثالث بعد الأربعاء بيومين، إعداد التقرير الأسبوعي في اليوم التالي للأربعاء. اختفت من تقويمي أيَّامُ السبت والأحد والإثنين

والثلاثاء والخميس والجمعة، ولم يتبقَّ لديَّ سوى الأربعاء. أصبح لهذا اليوم سِحْرٌ لا أقوى على مقاوَمَتِه. أنهض في صباحه نشيطةً خفيفةً مُتَحَمِّسَةً عكس كل أيام الأسبوع الأخرى، بما في ذلك أيام الإجازات التي كنت أنتظرها سابقًا قبل التقائي هؤلاء النسوة. أختارُ ملابسَ أنيقةً إلى حدٍّ ما، تكفل راحتي أثناء العمل والتجوّل في المخيَّمات، وفي نفس الوقت تمنحني شعورًا بالتميُّز والاختلاف، مُقارَنَةً بملابسي سائر أيام الأسبوع. أنتهي من عملي نحو الخامسة مساء، أو بعد ذلك بقليل ثم أتوجَّه لمقهى سالوتِّه.

أحاول دومًا أن أصل إلى المقهى في وقت مُبَكِّرٍ نسبيًّا قبل مرتاديه الآخرين. أتَّجِهُ مباشرةً نحو الطاولة القريبة لطاولتهنَّ، وأحاول في غفلة من العاملين أن أُقرِّبها قدر الإمكان حتى تصبح ملاصِقَةً لَـهُنَّ. أطلب صحنًا خفيفًا من جُبْنِ الماعز والزعتر، أو السلاطة الخضراء بزيت الزيتون، ألتهمه في عُجالَةٍ كي أتفرَّغَ لهنَّ عندما يَأْتِينَ.

يمضي الوقت بطيئًا كسولاً مُمِلًّا. أنظر للوديان البعيدة التي لا يتغيَّر مشهدها، ولكن تتغيَّر ألوان خلفيَّتها بتؤدَةٍ وحنكةِ فنَّانٍ، أُقلِّبُ في أوراقي وأضيف سطرًا هنا أو سطرين هناك إلى التقرير التفصيلي لمقابلات اليوم داخل المخيَّم، أنظر إلى طاولة النسوة الأربع التي لا تزال خاويةً، وإلى مدخل المقهى، لَعَلَّهُنَّ على الأبواب. أشطب عدَّةَ فقرات من شهادة ناجٍ من البراميل المتفجِّرة، يكيل فيها عبارات المديح والشكر المبالَغ فيها لمؤسَّسات الدولة المضيفة التي جعلت من المُخَيَّم وطنًا لِلَّاجئين بعيدًا عن وطنهم

المجاور، رغم أنه اشتكى كثيرًا من تَرَدِّي الأحوال في المخيم، ومن تقاعُس السلطات عن تلبية الاحتياجات الأساسية لِلَّاجئين قبل بدء المقابلة رسميًّا، أسرح قليلًا في معنى الحياد وعدم جواز إقحام موقفي الشخصي في إفادات اللاجئين. ألم أُقْسِمْ على الدِّقَّة، والنَّزاهة، والحياد، وعدم التَّدَخُّل في آراء الشهود، وتوثيق المقابلات كما هي؟ هل يحقُّ لي أن أصيغ التقرير بطريقة ذكيَّةٍ توجِّهه لوجهة أعرف يقينًا أنها الحق؟ ولكن مَن مِنَّا بإمكانه أن يزعم أنه يمتلك الحقيقة ويعرف الحق؟ أتَّخذ قرارًا بأن أترك عبارات المديح كما هي، وأكتفي بحاشية تعكس انطباعاتي عن مدى صدق أصحاب الإفادة.

قارَبَت الساعة التاسعة مساءً ولم تظهر النسوة الأربع بَعْدُ. اشتدَّت برودة الجَوِّ وأنا أجلس بملابس خفيفة بعيدة عن المدفأة المتوهِّجَة في منتصف المقهى. لا أعرف: هل اخْتَرْنَ هذه البقعة المنزوية في أطراف المقهى كي يتمتَّعْنَ بإطلالة متميِّزَةٍ على الوادي، أم للابتعاد خِصِّيصًا عن تلك المدفأة. أترك أوراقي وتساؤلاتي وحيرتي وأذهب للحمَّام قبل المغادرة. عاودتني حالاتُ الصَّهْدِ المتكرِّرَة في الفترة الأخيرة. تتصاعد ألسنة الجحيم داخل جسمي فجأة، وتنزُّ جميع مسامِّي عرقًا غزيرًا ساخنًا، حتى لو كُنَّا في عِزِّ الزمهرير. أحيانًا تظلُّ هذه النوبة معي بضع دقائق، وأحيانًا أخرى لا تستغرق سوى ثوانٍ معدودات.

كنتُ في التاسعة تقريبًا، وهي سِنٌّ صغيرة نسبيًّا على هذا الحدث الجلل، كان يوم خُطبة أختي الكبرى "أبلة نايلة" التي تكبرني بخمسَة عشرَ عامًا.

ازدحم البيت بالأهل والأقارب والجيران والخِلَّان، وأيضًا بِمَنْ ليس له صِفَةٌ على الإطلاق سوى الرغبة المشروعة في التواجُدِ في مكان فرح، أي فرح. حاكَتْ لي أمِّي فستانًا أبيض من التُّلِّ، عاري الكتفين، ضَيِّقًا من عند الصدر، ومنفوشًا أسفل الخصر. كان من المُخَطَّط أن أرتديه يوم الخُطبة وأحمل في يدي شمعة بيضاء طويلة، وأسير خلف أختي نايلة في الزَّفَّة، ثم أجلس تحت قدميها لا أفارقهما في "الكوشة"؛ طبقًا لتعليمات أمِّي الصارمة. ارتديتُ الفستان في الليلة التي سبقت الخطوبة كي تتأكَّدَ أمِّي من المقاس والطول والطَّلَّة، وتعطي أوامر وتعليمات بهدوء الخطوات، والبُعْدِ قليلًا عن العروس؛ حتى لا يطال اللهبُ فُستانَها. اطمأنَّتْ أمِّي على "البروفة جنرال"، هزَّت رأسها ارتياحًا، وأخذت الفستان وعلَّقَتْهُ في الدولاب حتى الغد الموعود. لم أستطع النوم في تلك الليلة، ظلَّتْ عيناي مُثَبَّتَتَيْنِ على الدولاب أَحْرُسُ كَنْزِي الثمين، ربما رُحتُ في النوم قبل الفجر بساعات قليلة لأستيقظ بعدها وأنا أشعر بعَرَقٍ خفيف وألم شديدٍ أسفل البطن، وبعض البلل غير المريح في ملابسي الداخلية. جَرَيْتُ على دورة المياه وقلبي ينتفض بِشِدَّة. هل بَلَّلْتُ نفسي لسبب لا أفهمه؟ هل خانتني مثانتي؟ هل أصابني ما يصيب بعض الأطفال في مدرستي ويصبحون مسخرةَ التلاميذ ومَثارًا لتقريع المُدَرِّسين؟ هل سأصبح مثل "نِحمدُه" صاحب الحقيبة الخيش والقراع العسلي في فروة رأسه الذي يُبَلِّل سرواله كل يوم؟ ماذا سأفعل حين تعلم أمي؟ والأهم من ذلك: كيف ستكون صورتي أمام "محمد حنفي نديم"، حبيبي، الرَّسَّام، الذي يقتسم

معي ساندويتشات الجبنة الرومي والبسطرمة التي تختلف تمامًا عمَّا يحضره سائِرُ التلاميذ من جبن أبيض أو حلاوة، وأحيانًا "مفتَّقَة" كريهة الرائحة؟ ستصبح فضيحتي بجلاجل في "الفُسحة"، سأسير مطأطِئَةَ الرأس تتبعني زَفَّةٌ من الأطفال مُرَدِّدين الأغنية المُهينَةَ المشينة المشهورة: "أُمّ شَخَّة أهي، أهي!".

في دورة مياه بيتنا كانت الفاجعة. وجدتُ مصيبةً أخرى ربما لا تَقِلُّ عن تَبَوُّلِ الأطفال الآخرين على أنفسهم في المدرسة. لم أفهم السبب؛ هل أصابني مرض ما؟ هل جرحت نفسي دون أن أدري؟ هل هذا عقاب لما فعلته مع "جدِّي حسن" الصيف الماضي؟ خرجتُ من دورة المياه لا أعرف لمن ألجأ. قرَّرْتُ أن أتجنَّب مواجَهَةَ أمِّي بما أصابني، وأن أُخبر أبلة نايلة بدلًا منها. أسْرَرْتُ لها في أذنها بما وجدته وأنا لا أعرف ما الذي ينتظرني منها. لدهشتي، ضحكت أبلة نايلة وضمَّتْني إلى صدرها وهي تقول لي "مبروك يا عروسة"، ونادت على ماما بصوت عالٍ وأخبرتها. جاءت أمِّي وابتسمت بقلق عندما سَمِعَت الخبر، وطلبَت منِّي ارتداء البنطلون البني والبلوزة البيج في الفرح، وأن أُعْطِي فستاني الأبيض التُّلَّ الجميل لِنُهَى ابنة خالتي كي ترتديه في الفرح، وتحمل الشمعة، وتسير خلف أبلة نايلة في الزَّفَّة، وتجلس تحت قدميها في الكوشة!

عندما زارني هذا الضَّيْفُ للمرَّة الأولى حرمني ارتداء الفستان العاري، والسير ركضًا، والضحك بصوت عالٍ. دخلت إلى حجرتي حزينة كارِهَةً مجيءَ هذا الضيف الثقيل، وبكيت.

عاش معي لا يُخْلِفُ موعِدَه بما حمل من آلام. وعندما أخبرني الطبيب بعد أن باغتتني أولى موجات الصهد والعرق، أن هذا الضيف الذي رافقني سنواتٍ طويلةً يستعدُّ الآن للذهاب إلى غير رجعة، تمنَّيْتُ لو أن الفستان التُّلَّ الأبيض لا يزال على مقاسي.

تأخَّـرْتُ قليلًا في الحَمَّام، كنتُ سـعيدةً بدفءٍ مؤقَّتٍ بدَّد لَسْـعَةَ البرد في الخارج، وهَدَّأَ من توتُّري الداخلي وتَرَقُّبي. جلست على قاعدة الحمام، وأغلقتُ الباب، وبدأت في إفراغ مثانتي الممتلئة. سمعت أصوات حديث بـين امرأتَيْن، ووَقْـعِ أقدام، وضِحْكَـةٍ مُجَلْجِلَةٍ سـمعتها قبل ذلك! هي. لا شـكَّ أنها هـي، الـمُهْرَةُ المَرِحَـةُ الضَّاحِكَةُ الصَّاخِبَةُ. لقد أَتَـيْنَ، أَتَـيْنَ أخيرًا.

* * *

8

يوسُف

كان توزيع المَهامِّ والمُقابَلات بيني وبين ألما واضحًا دومًا، بلا أي تَطاحُنٍ كما يكون الحال أحيانًا في بعض البعثات الأمميَّة الأخرى. حتى الدكتور فولك لم يصادِفْ أبدًا أيَّ مشاكل بيننا. أمَّا اليوم فقد احتار فيمن يختارها لمقابلة الأطفال والشباب. ألما طفلة كبيرة دائمًا، تجري وتقفز وتلعب وتنتقل بِخِفَّةِ الفَراشة من مكانٍ لمكان، وأنا العاقلة المُتَّزِنَة التي تكتب ملاحظات على الهامش يهتم بها الدكتور فولك أكثر من اهتمامه بِمَتْنِ الحوار مع اللاجئين، ومن ثَمَّ فقد حسم الأمرَ اليوم، وأعطاني مقابَلاتِ الأطفال، رغم تَبَرُّمِ ألما

لتقسيم العمل، لأوَّل مرة منذ أتينا لهذه البعثة.

انتقل "يوسف" من مكانه واقترب منِّي داخل خيمتهم التي تضمُّ جَدَّتَه الطاعِنَةَ في السِّنِّ، وخالَتَه، وأخواتِه السِّتَّ، هو الأكبر بينهم. لم يُصْغِ لأوامر الجَدَّة بعدم الابتعاد عنها أو الاقتراب من غريب. يوسف لم يشعر بالغربة معي، ومعه لم أشعر بالاغتراب.

همس يُوسُف في أذني:

"خالتو. تاعي نطلع."

لا بأس، سأبتعد قليلًا عن تأوُّهات المصابين وشخير النائمين ورائحة العرق وغازات البطن. يومٌ آخر داخل مخيَّم الزعتري لا أعرف ما يخبِّئه لي. أذهب وحدي لإحدى الخيام، أتحدَّث وأسمع وأطرح أسئلةً وأجاهد كي أخفي دموعًا تريد أن تنهمر منِّي بدلًا منهم، رغم أنه في أحيان كثيرة أنسى أن هذه الأُسَرَ شارفَت على الموت، ورأت بأعينها أَحِبَّتَها يموتون أو يُقَتَّلون وتُبْتَرُ أعضاؤهم أمامهم؛ فالحديث يتطرَّق لعملِ الكباب بالكرز، وفَتَّةِ الحمُّص والمُعَجَّنات بمختلف حشواتها، وتطريز الفساتين بخيوط الذهب والفضة، وتزجيج الحواجب بالحِنَّاء!

"يالا بينا يا يوسف."

هتفتُ بفرحةِ مَن سيأخذها والدُها معه في وقت متأخِّرٍ يوم وقفة العيد بعد أن اطمأنَّ لنوم الأم. سارع يوسف بوضع كَفِّه الصغير الدافئ على فمي حتى لا نوقِظَ سائِرَ النِّيام، أو تفيق الجَدَّةُ من إغفاءتها المتكرِّرة. ها أنا بدأت أتصرَّف بنفس نَزَقِ ألَمَا، ولا أُعِيرُ للتعليماتِ أيَّ انتباه!

سِرْنا على أطراف أصابعنا مُحاذِرينَ أن نَدْهَسَ النَّائمين، ومدفوعين بفرحةٍ طفوليَّةٍ وشعورِ المؤامَرَةِ والمُغامَرَة. أنا مُرْتَدِيَةً بنطلونًا من الجينز الأزرق، به بعض الرُّقَع النَّاجِلَة بفعل الموضة، وبلوزة زرقاء قطنيَّة، وحذاءً رياضيًّا مريحًا، ويوسف مُرْتَديًا بنطلونًا من الجينز الناجِل بفعل الفقر، وقميصًا مُخَطَّطًا، لا تَتَّضِحُ ألوانُه على وجه التحديد، وصندلًا من الجلد الصناعي.

كان من المفترض أن يكون يوسف وآلافٌ غيره في مقاعد الدراسة، فقد تعهَّدَت بعض الجهات الدولية المانحة، وكذلك الحكومة الأردنية بسياسةٍ لاستيعاب الأطفال السوريين اللاجئين في مرحلة التعليم الإلزامي في المدارس، سواء التي تأسَّسَت خِصِّيصًا لهم بأموال المانحين، أو استيعابهم في المدارس الأردنية النظامية، إلا أن هذا المخطَّط وتلك النوايا الحَسَنَة لم تُفْلِحْ تمامًا لأسباب كثيرة، من بينها: عزوفُ بعض الأُسَرِ عن إلحاق أطفالهم بالمدرسة؛ حيث يعتمدون عليهم اعتمادًا كُلِّيًّا لكسب قروش قليلة لِقُوتِهِم ومعيشتهم، ومن بين هؤلاء كان يوسف. خطوتُ خُطواتي الأولى خارج الخيمة ناحية اليمين بصورة لا إرادية، حيث الطريق الرئيسية التي

أَسْلُكُها وأنا في طريقي لمكتب البعثة والبوَّابة الرئيسية للمُخَيَّم ومنطقة سوق الشانزيليزيه، فجذبني يوسف ذو الأعوام التسعة من يدي ناحية اليسار، للمنطقة التي لا تزال غير مُجَهَّزَةٍ. هَمَمْتُ أن أثنيه فوضع سبَّابته الصغيرة على شفتيه بحزم. تبدَّل يوسف، صرتُ الصغيرةَ، وصار الكبيرَ! تقدَّمَ للأمام بضع خطوات، وضغط بقوَّةٍ على يدي وسحبني خلفه، كما لو كان يُرَوِّضُ فَرَسًا حَرونًا يَأْبَى التقدُّمَ في حلبة السباق. بدا أن يوسف يعرف طريقه جيِّدًا. تركتُ له الدَّفَّةَ واكتفيتُ بالمشاهدة والانتظار.

سِرْتُ ويوسف نحو ثلث الساعة بين بِرَكِ المياه العَطِنَةِ، وأكوام الحجارة، وألواح الزَّنْكِ، والعارضات الخشبية المُرَقَّمَة، التي سَتُجَهَّزُ منها الكراڤانات لاحقًا، في اتجاه جزءٍ مُتَطَرِّفٍ في نهاية المخيَّم، لا يزال في مرحلة الإنشاء استعدادًا لاستقبال مزيدٍ من الوافدين.

وصلنا إلى موقع توقَّف عنده يوسف. كان هناك كاراڤان قد شُيِّد بالفعل، وإن كان المدخل لا يزال مفتوحًا بلا باب خارجي، ويظهر في مقدِّمَته بعض الإمدادات: مَوْقِدٌ، ومدفأةٌ، وعددٌ من البطاطين الصوفية الجديدة ذات الألوان الفاقعة، والمراتب الإسفنج، والأغطية التي لا تزال في أكياسها البلاستيكية الشفَّافة، وصندوق صغير من الكرتون. ترك يوسف يدي فجأةً وأشار إلى الكراڤان وقد لمعت عيناه ببريقٍ بَدَا جَلِيًّا بالرغم من شحوب المكان، وقال: "هاي الخيمة خالتو!"

لم أفهم ما يقصده. لماذا هذه الخيمة تحديدًا؟ اقتربنا من الكاراڤان، بَدَتْ

التجهيزاتُ الموضوعةُ في مقدِّمة المكان مختلفة قليلًا عن تلك التي أشاهدها في الخيام الأخرى التي دخلتُها، بدت أفضلَ حالًا بكثير؛ البطاطين من نوعية جيِّدة من المخْمَلِ الناعم، والدِّثارات القطنية ذات ذوق رفيع، كما يوجد مفرش مُطَرَّزٌ بـ"موتيفات" من الورد الذي تكاد تشمُّ عبيرَه من فَرْطِ جودة ودِقَّةِ الصَّنْعَة! تركني يوسف واندفع إلى الداخل وهو يصيح:

"هُونْ أهل "غالي" رفيقي راح يسكنوا. أمي كانت بتشتغل حِداهُن بالشَّام، وصلوا مْبارح ع عمَّان وچابوا غراضْهُنْ وراحوا عند ناس بيعرفوهُنْ. غالي قال لي حينتقلوا لهون لَمَّا المخيم يِچْهَز. الصندوق الصغير فيه غراضه، لحظة خالتو، بَدِّي إطلّع ع ألعاب غالي".

انطلق كالصاروخ لداخل الكاراڤان. صرختُ فيه أن يتوقَّف؛ كنت أشعر بالخوف عليه من عدم اكتمال البناء من ناحية، ولم أكن واثقة تمامًا أن ما نفعله صائبًا من ناحية أخرى.

لم يسمعني يوسف وواصل انطلاقه كرصاصة تعرف مقصدها. سِرْتُ محاذِرَةً على ألواح الخشب والزنك المرصوصة على شكل "سقَّالة" مُؤَقَّتة تؤدِّي لمدخل الكاراڤانات، والتي بدأوا في تَعْلِيَتِها عن الأرض في الجزء الجديد من المخيَّم تلافيًا لغرقه بمياه الأمطار في فصل الشتاء. حاولت أن أتماسك وسط الزَّلَطِ والألواح الخشبية والعَتَمَةِ التي بدأت تلفُّ المكان. إذا صَمَدَت تلك الألواحُ تحت وزن يوسف فليس بالضرورة أن تواصِلَ

صمودَها تحت وطأة جسمي، بالرغم من الكيلوات السِّتَّة التي فقدتُها منذ وصولي.

وصلتُ إلى المدخل بعد السير كَحَاوٍ يسير على حبلٍ مُتَهَرِّئٍ، ألهثُ من الخوف والقلق. وجدتُ يوسف وقد سبقني جالسًا على جزء من أرضيَّةٍ ظهرت ألواح الصفيح من مواضع عدَّةٍ منها، وأمامه الصندوق الكرتوني. أخذ ينبش في الصندوق ويفرغ أحشاءه على الأرضية، أخرج أوراق "كوتشينة" مبعثرة، وعلبة "السلم والثعبان"، وعلبة ألوان من الأقلام الرصاص، ولوحة زيتيَّةً مُثَبَّتٌ بها مسمارٌ مُلْتَوٍ، لِبَيْتٍ ريفيٍّ بعيد يظهر بعضه فقط، بينما يختفي الجزء الأكبر وراء أشجار كثيفة وجدول صغير هادئ، ثم لعبة ضخمة على شكل الرَّجُلِ العَنْكَبوتِ، بِبَذْلَتِه المعروفة، وقناعه الأحمر، ومُنَبِّهًا أصفرَ صغيرًا يشير إلى الساعة الثالثة وعشر دقائق؛ لا بُدَّ أن الزمن قد توقَّف به وبأهل الدار عند هذا الوقت ساعة القصف والفرار.

تُشْبِهُ هذه اللوحةُ أخرى كانت لديَّ بجوار سريري في بلدي البعيد. نفس الإطار والمشهد إذا كُنْتُ لا أزال أتذكَّر. كان لونها أزرق فاتحًا ربَّما، وربَّما لونًا آخر. وقتها كنتُ قد تركتُ البيتَ القديم، وانتقلت لبيتٍ جديدٍ في مدينة جديدة تبعد عن قلب القاهرة كثيرًا، وتقترب من المطار أكثر.

عدتُ بعد ثلاثة أعوام بحثًا عن بعض الأوراق الهامَّة. المصباح المُعَلَّق

فوق الباب داخل إطاره الحديدي كان مُطْفَأً. مَدَدْتُ يدي كي أكبس على زرِّ نور السُّلَّم، فلمستُ خيوطًا خفيفة متشابِكَةً أصابتني برعشة خفيفة؛ عَشَّشَ العنكبوتُ على زِرِّ نـور السـلَّم في الطابق الذي كنـتُ أسكن فيه. تحسَّسْتُ ثُقْبَ الباب، أدرتُ المفتاح، ودَخَلْتُ. رائحةُ عَطَنٍ وظُلْمَةٌ وقِدَمٌ وغُبارٌ غَلَّفَتْ المكان. انتقلتُ مباشرة إلى ما كانت حجرتي. ملابسي في الدولاب لا تـزال كما هي، وإن تَغَيَّرَ القياس؛ أصبحت أرتدي ملابـس أَصْغَرَ قِياسَيْن. تعجَّبْتُ من ألـوان ملابسـي وقتذاك! جميعها تقريبًا سوداء أو رماديـة، وجميعها الآن يكسـوهـا الغبـار. أغلقتُ باب الحجرة ولم آَخُذْ منها أي شيء. انتقلت لغرفة "عمر"، لُعَبُهُ لا تزال على الأَرْفُفِ الخشبيَّة التي ثَبَّتُّها على الحائـط فوق سريره: سلاحف النينجا التي أحضرتُها له، فقـال لي إنها "أغبـى" هديـة حصل عليها، قذفتُه بها فبدأ يضع يديـه على وجهه ليحمي نفسه، وضحكنا. أخذ "جريندايزر" من فـوق رَفِّ المكتـبة وصَوَّب مدفعه الرشـاش تجاهي، وبدأنـا حربًا ضروسًا خَلَّفَت كوبًا مُهَشَّمًا، ومخدَّةً مُمَزَّقَةً تطايَرَت حَشْوَتُها وملأتْ الحُجْرَةَ نِدَفًا قُطْنِيًّا أبيض بياض الثلج، وسط ضحكنا وصراخنا الهستيري. قطعة الجبس التي كانت حـول ساقـه المكسورة والتي احتفظنا بالجزء الذي كتبتُ عليه بأقلام فلوماستر زرقاء وحمراء وخضراء –كل حرف بلون– "سلامتك يا نور عيني"، ولكن من دون حرف الياء الأخير؛ حيث قطعـه منشـار الجبس، أخـذهـا "عمر" من يـد المُمَرِّض في المستشفى ووضعها على المكتبة بجـوار لعبه. فتحتُ درج مكتبه الصغير، صور وصور وأماكن وسنوات، سنواتٌ كَبُرَ فيها "عمر"، وكَبُرَتْ فيها "أمُّ عمر".

لم أتعرَّف على صوري. مَنْ هذه المرأة البدينة التي تُحَدِّق في شيء بعيد ولا تنظر للكاميرا، أو تحتضن طفلها أمام بحيرة نسيتُ مكانها، بينما يحاول الطفل الفِكَاكَ من قبضتها؟ مَن تلك المرأة التي تختفي خلف نظَّارة شمس سوداء، حتى لو كان الوقت ليلًا؟ تركتُ كل شيء. نسيت الأوراق الهامَّةَ التي أتيتُ من أجلها، أخذتُ فقط صور "عمر" والجبيرة الجبس، وتركت المرأةَ البدينة في الدرج.

تنبَّهتُ على صوت يوسف. كان المُنَبِّهُ الأصفر لا يزال يشير إلى الثالثة وعشر دقائق. انتزع يوسفُ الرجلَ العنكبوتَ بِعُنْفٍ من الصندوق واتَّجه للخارج، عاد إلى جلسته ثانيًا ساقيه تحت فخذيه ومعه قطعة زجاج مُهَشَّمَة، ووضع لعبة غالي أمامه. بدأ يصرخ بهيستيريَّةٍ ويطعن الرجل العنكبوت بطعناتٍ حادَّةٍ نافِذَة. تركتُ خيبتي ودهشتي وجلست بجواره أشاركه غضبه وصراخه، وطَعْنَ الرجل العنكبوت.

* * *

9

أَرْبَعٌ زِدْنَ واحِدَةً

خرجتُ مُسْرِعَةً من حمَّام المقهى، غسلت يدي في عُجالَةٍ كي ألحق بالنسوة قبل أن يغادِرْنَ، عازِمَةً هذه المرَّةَ أن أتعرَّف إليهِنَّ، وألَّا أكتفي بالمراقبة والحسد. سأتقدَّم إلى طاولَتِهِنَّ، ألقي بالسلام، وأُقَدِّم نفسي، هكذا ببساطة. لا شَكَّ أنَّهُنَّ سَيُرَحِّبْنَ بي ويدعونني للجلوس مَعَهُنَّ، ولماذا يَرْفُضْنَ؟ هيئتي توحي بالثِّقَة، هندامي يَشِي بمستوى اجتماعيٍّ لائق، وابتسامتي تسبقني أينما ذهبت. سأعرف حكاياتِهِنَّ، وأُعَرِّفُهُنَّ على حكايتي. ليست حكايتي كلها بكلِّ تفاصيلها المُحْزِنَة والمُشينَةِ والمُخْجِلَةِ بالطَّبْع، لكن بعضًا منها فقط.

أنا سيِّدة الحكايا، سأكشف عمَّا أريد، وأحجب ما لا أُحب. قد أُغَيِّر قليلًا أو كثيرًا من بعض التفاصيل، أزيد وأنقص وأُشَذِّب وأُجَمِّل. هُنَّ كذلك قد لا يمنحنني معرِفَةً كاملة، ولكن لا بأس، أعرفُ كيف أستنطقُهُنَّ، وإذا احتار أمري وأفلستْ حيلتي سأكملُ قِصَصَهُنَّ من مُخَيِّلَتي، وأُوَشِّيها بمصائِرَ هانِئَةٍ أو قاسِيَةٍ طالما تمنَّيْتُها لي ولمعارفي في وطني القاسي، ولآخرين قابَلْتُهُم في أوطان أخرى أقل قسوة، ولم أُصِبْ أيَّ نجاح في الحالتين.

أثناء خروجي لمحتُ على المقعد الحديدي المشغول بجانب مرآة التجميل سُتْرَةً كحليَّةَ اللون، نفس السُّتْرَة التي كانت ترتديها المُهْرَة. أخذتُ السُّتْرَةَ ووضعتها على كتفيَّ وتوجَّهْتُ لداخل المقهى فَرِحَةً بما وجدت، فها هي فرصةٌ أجمل وأبسط للتعارُف قد أتت إليَّ حتى أعتاب الحمَّام.

عند عودتي من دورة المياه كان الجرسون يتحدَّث إلى زميله ويشير إلى طاولتي:

"وين راحت المَرَه؟ طلبتْ قهوة وصَحْن حُلو وراحت؟"

"المَرَه! أنا مَرَه يا ابن المَرَه الـ...!". قلتُ في سِرِّي مُسْتاءَةً دون أن أُكملَ المَسَبَّة. ها أنا جَبُنْتُ مرَّةً أخرى عن النُّطْقِ بها حتى بيني وبين نفسي.

كنت أتلذَّذ بأن أختلي بنفسي في رُكْنٍ بعيد من البيت، بعد نوم أمي وأبي وإخوتي، فقط كي أتلفَّظَ بكل كلمات السباب الممكِنَةِ بصوت أسمعه، أختار الكلمات الأكثر بذاءةً على الإطلاق، التي لا يتفوَّه بها سوى "الصِّيَّع" والمتشرِّدين والبلطجية انتقامًا من أمِّي، ونكايةً فيها. مسكينة أمِّي، تفتَّق ذهنها الطَّبَقِيُّ عن حيلة فَخَرَتْ دائمًا بأنها صاحبة براءة اختراعها؛ كان إذا أخطأ أحدُنا عندما كُنَّا صغارًا، أو أقدم أي طفل من أطفال العائلة على فِعْلِ حماقةٍ أو طَيْشٍ، تَسُبُّه بغضبٍ قائلةً: "يا فُلَّة، يا ياسمينة!" حتى يترسَّخ في ذهن الطفل أن هذه الكلمات هي شتيمة، فإذا غضب أحدنا لاحقًا، أو تشاجرنا مع أقراننا شتمناهم بهذه الكلمات "اللطيفة". ولمَّا كان أبي يعترض: "يا سيادة، ها تضلِّلي العيال!"، تردُّ بغضب: "بَلَا سيادة بَلَا عبادة، عاوزهم يتعلِّموا الشتيمة زي ولاد الشوارع؟". ساهمتْ أمِّي بحُسْنِ نِيَّةٍ في تغييب الوعي اللغوي لثلاثة أرباع العائلة. أتذكَّر الآن مبتسمةً عندما كنت في مرحلة المراهقة تقريبًا، وكنت ألهو مع ياسين، ابن أختي أبلة نايلة، الذي كان في الثالثة وقتها، وسكب الحليب متعمِّدًا كي لا يشربه، فما كان من أُمِّي سوى أن قالت له بغضب: "كده دلقت اللبن يا فُلَّة؟"، ضحك ياسين ضحكة عالية، وقام وهمس في أذني: "نِنَّاه تقصد تقولي يا ابن الكلب يا وسخ".

جلستُ بهدوء على طاولتهنَّ في الزاوية المُعْتِمَة، مُسْتَغِلَّةً انشغالَ الجرسونات وعَتَمَةَ المكان. ها هُنَّ الأربعة وقد حَضَرْنَ: نفس الضجيج والضحك

الصاخب من المُهْرَة، والتجهُّم الجاد من الناقة بخطواتها المتسارِعَة، والارتباك المُحَيِّر من المرأة المُحَجَّبة، واللَّا تعبير من العَنْزَة. دقَّ قلبي بعنف، كاد أن ينفلت من بين ضلوعي ويقفز من أعلى نقطة في التَّبَّة العالية، صعد الصهد أكثر سخونة واتِّقَادًا من صهد الجمرات المُشْتَعِلَة في وعاء عامل النَّرْجيلَة. انتظرتُ ثواني حتى يَصِلْنَ للطاولة. ثوانٍ معدودات مَرَّتْ عليَّ أطولَ من شارع "الحسين" في عمَّـان. حاولتُ أن أهدأ، كرَّرتُ لنفسي مرَّة أخرى: "أسوأ سيناريو أن يطلبن مني مغادرة الطاولة، فأتعلَّل بأنني كنت أنتظرهنَّ لإعادة السُّتْرَة، وأقدِّم لَهُنَّ نفسي وأتعرَّف عليهِنَّ، وبالتأكيد سَيُرَحِّبْنَ بي، وربَّما يدعونني للانضمام إليهنَّ، أو مشاركَتِهِنَّ مشروبًا".

وَصَلْنَ. تَوَقَّفْنَ. نَظَرْنَ إليَّ. تبادَلْنَ النَّظَرات فيما بينهنَّ. أدارت الناقةُ رأسها بِحِدَّةٍ للجرسون. نظرت العنزة إلى لا شيء. انشغلت المُحَجَّبة بإخراج قطعة معدنية صغيرة من حقيبة يدها، وجهتْ إليّ المُهْرَة كلامها ضاحكَةً: "يا هلا يا هلا بحرامي الچاكِت، ولَّا حرامي الـحَلَّة على قولة المصريين؟". ابتسمتُ في تَحَفُّظٍ، وقدَّمتُ لها الجاكت وتظاهرتُ بالمغادرة. لوَّحتْ لي المُهْرَة بيدها وهي تنفث دخان سيجارتها في الهواء أن أظلَّ في مكاني، فهززتُ رأسي بالموافقة المتردِّدَة وكأنَّني لم أُبيِّت النِّيَّةَ لاقتحام طاولتهنَّ وحَيَواتِهِنَّ. خَلَعْنَ سُتْرَاتِهِنَّ. عَلَّقَت المُحَجَّبَة حقيبةَ يدها بالحامل المعدني الذي أخرجته من حقيبتها على طرف الطاولة. هَزَأَت المُهْرَةُ من تصرُّفها المُنَمَّق، واحترامها

المُبالَغ فيه لـ"چوزدانها". نهرتها الناقة على استخفافها بعادات الآخرين، وانتقدت حياتها البوهيميَّةَ. صمتت العنزة، ولم يلتَفِتْنَ لي.

لم أصادف في حياتي مثل هذه السهولة في التعرُّف إلى أغراب. اندمجتْ النساء الأربع في الحديث، وكأنَّهنَّ يعرفنني منذ زمن. كانت الناقة مُتَسَيِّدَةً الحوارَ في معظمه، تجلس صارِمَةً، واثقةً، قويَّةً بصورة تقترب من الحِدَّة أحيانًا، مُقَطِّبَةً جبينها طوال الوقت، وحين تُعْرِبُ عن رأيٍ لها حتى في أمـور غير هامَّةٍ بالـمرة كموضع "منفضة" السجائر أو ترتيب المقاعد لا يبدو أن هناك مَن تستطيع ثَنْيَها عن قرارٍ أو رأي، أو حتى تغييره قليلًا. ويبدو كذلك أنَّهُنَّ يتقبَّلْنَ الأمر منها لسبب قد يكون جَلِيًّا بالنسبة لَهُنَّ، أو بلا سبب على الإطلاق! أمَّا المُهْرَة فهي ضاحكة لاهية عن الحديث بسجائرها التي تنفث دخانها إلى أعلى، وحين تريد مُضايَقَةَ إحداهُنَّ تنفثه في وجهها، مُنْشَغِلَةً أغلب الوقت بهاتفها النَّقَّال، ورسائِلَ تتبادَلُها على تطبيق "الواتسآب" مع أخْرَياتٍ، أو ربما آخرين، وما إنْ تَصِلْها رسالةٌ برنين رتيب مُزْعِجٍ، تَتَبَرَّمُ منه الناقةُ بحركة ملحوظة، حتى تبادِرَ بكشف غطاء الهاتف وقراءة الرسالة، أو مشاهدة مقطع فيديو، وتنفجر ضاحكة. تحاول قراءة الرسالة للمجموعة بصوتٍ عالٍ، فتنهرها النَّاقةُ وترمقها بنظرة حادَّةٍ، تجعلها تتراجع عن محاولتها، فتميل ناحية العنزة أو ناحيتي تُريني رسالةً لا أفهم سياقها، وتضحكان سويًّا، بينما أنظر إليهما ببلاهة.

حضر الجرسون لأخذ طلباتِهِنَّ، فطلبت العنزةُ زجاجة مياه غازية ماركة

"پيرييه". عندما تحدَّثَتْ بدا من لكنتها بوضوح أنها مصرية؛ رغم استعمالها لبعض الكلمات باللهجة المحلية عَجَزَت عن خداعي. سُرِرْتُ بهذه المفاجأة، شعرتُ بقوَّةٍ وسَنَدٍ وأُلْفَةٍ لمجرَّد سماع لهجة بلادي بخلاف أغنية "إلعب يالا"، وزر الطربوش الأحمر من عامل النرجيلة المصري. طلبتْ الناقةُ علبةَ بيرة "هايكنز"، واختارت المُهْرَة صحن بطاطا مقلية انتقدَتها بسببه الناقة، بينما اكتفت المرأة المُحَجَّبَة بدورق المياه الموضوع على الطاولة. لكزتها المُهْرَة في كتفها مماِزحَةً وسألَتها مستنكرةً: "ما بِدِّك تجربي البيرة؟ لسَّاكي عذراء؟". احتقن وجه المرأة المحجَّبة بشدَّة، وأجابت بغضب: "ما خَصْكُن؟ بِتِقدروا تشربوا أدَّامي ما في مشكلة. اتركوني بحالي، أنا ما باشرب كحول." بينما أشرتُ أنا إلى دورق المياه أيضًا. كانت المحجَّبة مهمومةً بقائمة مكتوبة في يدها، أمسكتْ قلمًا أخذت تخطُّ به بعض الكلمات وتشطب أخرى وتعبيرات القلق بادِيَةٌ بوضوح على قَسَمات وجهها؛ ابنتها الوحيدة "تاليا" مُقْبِلَةٌ على الزواج وتُصِرُّ البنتُ على أن يكون الفرح "خَطيفَة". فهمتُ أن المرأة شركسيَّةٌ، وتلك إحدى تقاليد الزفاف لديهم. لم أفهم بالمرَّة ما تعنيه الكلمة، وإن كانت المجموعة لم تستغربها. لا يهمُّ الآن، سأعرف كل شيء عنها وعن خطيفتها لاحقًا.

"أمِّي لِسَّاتْها مِصِرَّة تسافرع نالْتِشِك!" تحدَّثت الشركسية. "بِدْها تموت وتندفن في بلاد أهلها مع جدودها. بَلْكِي بنسافر ونرجع وما بتموت،

وبنكون اتبهدلنا وأكلنا هواع الفاضي!". ردَّت المُهْرَةُ ضاحكةً: "بنروح كُلِّياتْنا على نالْتْشِك. عجبني الاسم". ثم غمزت بعينيها، وأكملت: "وإيش بيعَرِّفنا مين رَحْ نقابله هناك؟" هزَّت الناقةُ رأسَها موافِقَةً وردَّدَت بصوتٍ خفيض: "ليش لأ؟ بنروح على نالْتْشِك." بينما أطرقت العنزة ولم يَبْدُ عليها أيُّ تعبير يَنُمُّ عن رفض الفكرة أو قبولها. نظرن إليَّ، فابتسمت متسائِلَةً: "هل يوجد لاجئون هناك ومُقَرِّرون لحقوق الإنسان بحاجة إلى خدماتي؟"، فَضَجَجْنَ بالضحك، وردَّت المُهْرَة: "رَحْ بنكون احنا اللاجئين هناك إذا بدِّك." مضى الجرسون ليحضر الطلبات لأفراد الطاولة المستديرة. أخرجتْ الناقة من حقيبة يدها جهازَ "الآيباد"، فتحته، وقالت بِحِدَّةٍ: "اسمعوا." وبدأت تقرأ علينا مقالاً مُهِمًّا في رأيها لـ"ناعوم تشومسكي" صادفته في إحدى الجرائد، يتحدَّث فيه عن الشرق الأوسط الجديد، ومُخَطَّط تقسيم العالم الثالث. بدأتْ القراءة بطريقة جادَّة وسِحْنَةٍ مُتَجَهِّمَةٍ:

"هناك مخطَّطٌ واضح لتقسيم دول العالم الثالث بشكل عام، ودول الشرق الأوسط بشكل خاص..."

"ماشي يا سيدي ما في چديد في ها الحَكْي الفاضي!". قالتها المُحَجَّبَةُ بصوتٍ خافِتٍ دون أن تخفي تَبَرُّمَها من المقالة. لم تلتفت الناقة لجُمْلَتِها وتابَعَت:

"... ولا يخفى أن الاستعمار قديمًا مُطَبَّقًا لسياسة "فَرِّقْ تَسُدْ" قد بدأ في بَثِّ بذور هذا المُخَطَّط على المستوى الحدودي من خلال تَرْكِه دومًا

عند مرحلة التقسيم وترسيم الحدود جيوبًا تَحيدُ عن الخطِّ المستقيم في المناطق الحدودية بين البلدان، تسكنها قبائِلُ أو جماعاتٌ مُمْتَدَّةٌ بين كل دولتين، وتربطها أواصِرُ الدم والمصاهرة، وحين تشتدُّ النعرات القومية سواء بفعل قوى خارجية أو قوى داخلية -أحيانًا ما تكون أَشَدَّ فُجْرًا وبطشًا بمواطنيها من القوى الخارجية- تتأجَّج الصراعات والنزاعات التي تصل لحد الاقتتال بين تلك الجماعات، وتبدأ الفتنة والفُرْقَةُ في الاشتعال..."

أشاحت المُهْرَةُ بيدها في لا مبالاة وقالت: "قولي لتشومسكي يحِّل عن طيزي!". تجاهَلَتْها النَّاقَةُ وأكملت:

"... كما يتمُّ كذلك تفتيتُ الدُّوَل من الداخل إلى دويلات صغيرة هَشَّةٍ، حسبما تسمح التركيبة الديموجرافيَّةُ في كُلٍّ منها، تارةً على أساس دينيٍّ، وأخرى على أُسُسٍ عِرْقِيَّةٍ أو مذهبيَّةٍ أو قَبَلِيَّة."

اعتدلت المُهْرَة في جلستها، ورسمت الجِدِّيَةَ على ملامح وجهها، وقالت مُقاطِعَةً: "تمام، تمام، بَلْكي فيه مخطَّط لتقسيم إيران!" رفعت المُحَجَّبَةُ رأسَها عن ورقتها، وتساءلت بعفوية وبراءة: "كِيف يعني؟ إيران ما فيها مسيحي ومسلم، وما فيها سِنَّة وشيعة، ولا عرب وكُرْد، ولا جنوبي وشمالي! كِيف ها يقسِّموا إيران؟".

أطفأت المُهْرَةُ سيجارَتَها دون أن تنتهي منها تمامًا في "المَتَكَّة"، وأجابت

بنفس الجِدِّيَّة التي بدأت بها حديثها: "رَحْ يودُّوا كل إير في محل، إير من ورا، وإير من قُدَّام، وهادي لذَّة المخطَّط الجديد." لَكَزَتْها المُحَجَّبَة في كتفها واحمرَّ وجهُها خجلًا، وانفجرت المجموعة في الضحك. تركتُ مكاني وسارعتُ لدورة المياه، فكَّرْتُ في عالَمِهِنَّ الذي أقحمتُ نفسي فيه عُنْوَةً وطَوْعًا. ارتعبت من فكرة التَّلَصُّصِ على حياة الآخرين -رغم غوايتها- وابتسمتُ بيني وبين نفسي لِمُزْحَتِهِنَّ الماجِنَة، وأنا سعيدةٌ سعادةً لا تُوصَفُ بهذه الطاولة وبتلك النعمة، أو ربما النقمة التي حَظَيْتُ بها، والتي أدخلتني عالَمَهُنَّ دون أن يَدْرِينَ، فرارًا من جحيم الزعتري.

* * *

10
الظِّــلُّ

شهور ثلاثة بالتَّمام والكمال مرَّتْ عليَّ في هذه المدينة التي لا تشبه مدينةً أخرى، وتشبه كلَّ المدن. أصعد وأهبط في طرقها شديدة الانحدار كلَّ يوم، لكن أعجز عن الشعور بأيِّ أُلْفَةٍ معها. أزور الزعتري، أُنْصِتُ لكلِّ ما يُقال، وأسمع ما يُحْجَبُ، أُدَوِّن حكاياتٍ كثيرةً، وحواشِيَ أكثر، أتردَّد أيام الأربعاء على كافيه سالوتِّه، أجلس مع النساء الأربع، وأستمع إليهنَّ، وأستكمل التفاصيل التي تفوتني. أتناسى غصَّاتي لِسُوَيْعاتٍ قليلة أكون فيها بين اللاجئين أو بينهنَّ، أتجاوز الواقع لمستقبل مُتَخَيَّلٍ أُوقِنُ

أنه سيكون أكثر إشراقًا، حتى ولو كُنَّا قد تركنا هذا الحاضر وأصبحنا ماضيًا. أتعلَّقُ بتلك الخيوط الواهِيَةِ، وأنسجها كُرَةً مُلَوَّنَةً للنَّاجين من القتل والدمار والتنكيل دون أيِّ نِيَّةٍ منِّي لخداعهم.

الفتاة الحلبية الجميلة ذات المعطف الرمادي المُطَرَّز بورود مُلَوَّنَةٍ، والطَّرْحَةِ البيضاء الواصلة من الأمام حتى حاجِبَيْها المُزَجَّجَيْنِ بصورة طبيعيَّةٍ، تتبعني عن بُعْدٍ منذ اليوم الأول لوصولي المُخَيَّمَ. تسير ورائي كَظِلٍّ لي، يتمرَّد عليَّ أحيانًا ويسبقني، لكنه لا يمشي أبدًا بمحاذاتي. أتلفَّتُ ورائي فأجدها بالقرب، أسيرُ مسافاتٍ طويلةً، وأتنقَّل من خيمة لأخرى فتكون في الجوار، وحين تختفي عن نظري يساوِرُني يقينٌ بوجودها، ربما في مكانٍ ما لا أراها منه. حاولت عِدَّةَ مرَّات أن أشير لها بالاقترابِ والحديث، فكانت تجري مبتعدةً وتختفي بين الخيام. تظهر فجأة وتختفي فجأة. كانت شبحًا أمينًا يوحي بتساؤلات أكثر من الفضول، مُرافقًا دائمًا لي، سواء كنت بمفردي أو مع ألما والدكتور فولك. ولما جُرِحَ إصبعي من السلك الشَّائِكِ الذي يُسيِّج المخيَّمَ بأكمله ويجعله أقرب للسجن منه إلى منطقة سكنية، انشقَّت الأرضُ أمامي لأجدها تَمُدُّ لي يدها بطرف طرحتها البيضاء وتكبس على الجرح لتُوقِفَ الدَّمَ المُتَفَصِّدَ منه. لم تُمْهِلْني حتى أعترض. وجدتها أمامي، يدها ضاغطة على إصبعي بقوَّةٍ لا تتناسب مع نحافتها وشحوب وجهها أو أصابعها النحيلة بِطَرْحَةٍ بيضاء تلوَّثَت بدمائي. شكرتها وعرضت عليها أن أصطحبها لسوق الشانزيليزيه، وأبتاع لها طرحة بدل طرحتها التي تلوَّثَت، فهزَّت رأسها رفضًا وتركتني ومَضَت.

فتحتُ دفتري لأتحقَّق من مقابلات اليوم. جاء الدور على زيارة الخيمة التي كنت أخشاها، والتي طالما جاء ذِكْرُها على ألسنة آخرين وأخريات عدَّةَ مرَّاتٍ: خيمة "أم مازن"، تلك المرأة الطاعنة في السن، والجَدَّة التي ذُبِحَ خمسة من أبنائها أمام عينيها وقُتِل سبعة من أحفادها الذكور، واغتُصِبتْ كِنّاتها قبل أن يُلْقِينَ بأنفسهنَّ من شُرْفاتِ الدَّار، غير أنها استطاعت بمساعدة بعض النَّاجين من القصف والتنكيل وبعض السماسرة أن تَفِرَّ مع حفيدةٍ وحيدة نَجَتْ بعد محاولة انتحار فاشلة عقب تَعَرُّضها للاغتصاب الوحشي عدَّةَ مرَّاتٍ من عصابات الحرب و"الشَّبِّيحَة". سقطت الحفيدة على أكوام من الـجُثَث المُلْقَاة أسفل النافذة. نَجَتْ من الموت، وغادرت حلب مع جدَّتها إلى الشام، ثم إلى الأردن، بِكُسورٍ، وكَدْماتٍ، ومهْبَلٍ مُتَهَتِّكٍ، ولسان لا ينطق حتى بآهَةٍ مكتومة.

اتَّفَقْتُ مع الدكتور فولك منذ البداية أن أُجري بمفردي مثل هذه المقابلات التي نعرف مُسْبَقًا أن الحديث فيها سيتطرَّقُ لأمور حسَّاسَةٍ، وأن وجود رجل سيُصَعِّب من الأمر ويَصُدُّ اللاجئاتِ عن البَوْحِ والاسترسال، بل أحيانًا عندما كُنَّا نبدأ مقابلةً عاديَّةً، ويستشعر الدكتور فولك أن هناك بترًا مقصودًا في سَرْدِ الحكاية بسبب وجوده -رغم معرفة النساء أنه لا يفهم اللغة العربية- كان يتعلَّل بالتَّعَبِ أو حاجته للذهاب لدورة المياه كي لا تشعر النساء بالحرج من الحديث أمامه، أو كَشْفِ أجزاء من أجسادهِنَّ بها حروقٌ أو آثار طلقات أو إيذاءٌ بَدَنِيٌّ. كانت مقابلة "أم مازن" من تلك اللقاءات التي يعرفُ وأعرفُ أنه سيكون عليَّ أن أجريها وحدي.

الخيمة في القطاع التاسع الواقع في نهاية التقسيم، وبالرغم من أن القواعد المعمول بها في توزيع الخِيَم على الأُسَرِ تقضي بإفراد خيمة مستقلَّةٍ فقط للأُسَرِ التي يزيد عددها عن اثنين، وفي حالة وجود أُسْرَةٍ واحدة بها فَرْدٌ أو فَرْدانِ تتشارك الخيمة مع أسرة أخرى: الذُّكورُ مع الذُّكورِ، والإناث مع الإناث؛ إلَّا أن الظروف الخاصَّة التي مرَّت بها أم مازن، والحالة النفسية لحفيدتها جعلت إدارةَ المخيَّم تستثنيها من تلك القاعدة، وخصَّصَت خيمةً مستقلَّةً للاثنتين.

بدأت بشائِرُ الشتاءِ اللئيمةُ: طقسٌ متذبذب، زخَّاتُ مطرٍ مُحَمَّلَةٌ بالغُبار تترك على الأرض بِرَكًا صغيرة رطبةً، صفيرٌ حادٌّ مزعج من جرَّاء مرور الهواء بين ألواح الزنك، وكآبة تشرخ الروح. خيمة أم مازن جزءٌ صغير مقتطَعٌ من الكراڤان، بها مرتبتان من الإسفنج، ومَوْقِدٌ صغير، وبعض الأطباق والأكواب، وزجاجة مياه، وقِطَعٌ ملابِسَ مُتناثِرَةٌ هنا وهناك.

خلَعْتُ "البوت" ذا الرقبة العالية، وهذا أسوأ شيء يحدث في المقابَلات التي تُجْرَى داخل الخيام، أميلُ على الأرض وأفتح "سوستة" الحذاء دون وجود أي مقعد أو صندوق أستند عليه. أتفادى الوقوعَ عدَّةَ مرَّات. أترك حذائي بالخارج وأدخل بجوربي المُبَلَّل.

أمُّ مازن تخطَّتْ الثمانين، وخَطَّ الزمنُ خطوطَه على بشرتها البيضاء وأعْتَمَ إحدى عينَيْها. تربَّعَت هي على المرتبة المواجهة للمدخل، وحاولتُ أنا اتِّخاذَ نفس الجلسة على المرتبة التي أمامها. لم أتمكَّن أبدًا من إتقان هذه الوضعيَّةِ

عندما كُنَّا نذهب لزيارة أقاربنا في الريف، وكثيرًا ما عنَّفَني أبي لذلك؛ فقد كان يخشى أن يَظُنَّ أقارِبُه أنني أتعالى عليهم. يغضب أبي، وتلومه أمي، وتتندَّر عليَّ عمَّاتي. ولا أهتمُّ. فليظنُّوا بي الظُّنونَ هؤلاء الفلَّاحون! أمَّا اليوم، وأمام أم مازن، حاولتُ الجلوسَ بهذه الطريقة بِجَهْدٍ صادِقٍ، وأَلَمٍ في الظهر ومفاصل الرُّكْبَتَيْن.

أخرجتُ عُلْبَة بسكويت صغيرة قدَّمتُها لها، فأخذَتْها بامتنانٍ، وإن قالت: "وين المعمول بالعجوة والفستق الحلبي؟" لم أشأ أن أُطَمْئِنَها أنها ستعود لدارها في القريب، وتتذوَّق أو ربَّما تصنع بيديها ما تشتهيه. نتفادى بتعليماتٍ صارِمَةٍ إعطاءَ أيِّ وعودٍ كاذِبَةٍ لِلَّاجئين حتَّى على سبيل المواساة والتخفيف عنهم، على عَكْسِ ألما التي تُطَيِّب خاطرهم، وتُخْرِجُ لسانَها دومًا لكلِّ القواعد الشفهيَّةِ والمكتوبة، وحتَّى المنطقية. تَتْبَعُ منطقَها الخاصَّ، وتقول دائمًا: "يا حبيبتي كلنا لاجئين بهالخرابة، آدم بذات نفسه وحوَّا كانوا أول لاجئيْن! يمكن القِصَّة فيها خرا أحسن شوي من خرا." لم أجد ما أرد به على أمِّ مازن، فَصَمَتُّ وتناولتُ كوب الشاي الذي صَبَّتْه لي وشكرتها.

أنظرُ لأمِّ مازن وهي تحكي فأرى حلب قبل احتراقها، وأشمُّ شوارعَ المدينة، وأسمع الشباب المازِحَ الواقِفَ على ناصية الطرقات، والأطفال اللاهين أمام بيوتهم. تحملُ تاريخًا ثقيلًا في ذاكرتها، أصبح يَغْلُبُ عليه اللونُ الأحمرُ القاني، وإرثًا ثقيلًا مُحَمَّلًا بذكرياتٍ كانت بسيطةً هانِئَةً فمحاها الواقِعُ المُؤْلِمُ الذي عاشته، ولم يترك لها سوى جُثَثِ أبنائها وأحفادها مُلْقاةً

أمام عَيْنَيْها وهي تَفِرُّ هاربةً في الظَّلام. تمنَّت أم مازن أن تغطِّي أجسادهم المحترقةَ وأشلاءهم المبتورة، ولم يكن لديها سوى طَرْحَتِها فعدَلَت عن الفكرة. تركتهم للعراء والعُرْيِ والتَّنْكيلِ، وواصَلَت فرارها مع حفيدتها. أخرجت أم مازن هاتفًا نقَّالًا وعرضت عليَّ بعض الصور ومقاطع فيديو لعمليات قصف وعشرات من البراميل المتفجِّرة والأجساد المبتورة، قالت إنها لدارها ولعائلتها. أخذتْ تشير ليدٍ بأصابع ناقصة وتقول: "هاي لمازن!" ولِـجُثَّةٍ بلا رأس: "وهاي لنادر" حفيدها! وسيِّدة مُلقاةٍ على بطنها ترتدي جلبابًا أزرق تسمِّيها "رچاء كِنَّتها". كانت نفس الصور والمقاطع التي شاهدتُها عشرات المرَّات لدى أُسَرٍ أخرى، أو أفرادٍ في طرقات المخيَّم. جميعهم يتداولون نفس الصور ويعرضونها على أنها لذويهم! لم أشأ أن أواجهها بالأمر، فربَّما كان مواسيًا لها أن تطمئنَّ بوفاتهم، على أن يأكلَ قلبَها الخوفُ من مصير آخر مجهول.

في منتصف الكلام ظهر الملاكُ الشَّاحِبُ "غزل"، التي أرادت لها جَدَّتُها "عمليَّة ترچعها بِنِتْ مِتل الأول". ولأول مرة تقترب مني بلا خوف وتنظر في عيْنيَّ بعد أن أخذَتْ إشارةَ الأمان من جَدَّتِها. جلست بجانبي، فابتسمتُ لها مُطَمْئِنَةً دون أن أَمُدَّ يدي أو أُبادِرَ بأي تلامُسٍ جسديٍّ. غزل طالها من اللمس ما يكفي لتَرْكِ آثارٍ لا تُمْحَى من البَدَنِ والرُّوح.

* * *

11

غَــزَل

مع "غزل" كان عليَّ أن أنصتَ أكثر ممَّا أتكلَّم. ليس عليَّ أن أطرحَ أسئلةً أو أنتظرَ إجاباتٍ أو أستفسرَ أو أستوضحَ. غزل تصمتُ حين تريد، وتحكي حين تشاء. غزل لها الدفَّةُ والبوصلةُ والقاربُ والملَّاح. آذانٌ. آذانٌ فقط هي ما تحتاجها، فَكُنْتُها. محوتُ ملامحي، وتناسيتُ جسدي، وتمنَّيتُ أن يذوبَ لِذَرَّاتٍ أو عَبَراتٍ من عبراتها، فلا تشعر بوجودي وتُنَفِّسُ عمَّا بها، وليذهب العالم كله مع الطوفان.

حَكَت غزل بلا مقدِّمات أو سؤال أو استفسار:

"تركنا دارنا يالليِ حبِّيناها وأحبتنا، ورحلنا".

لماذا يا غزل بدأتِ بهذه العبارة؟ هل لك أن تكوني أكثر رحمةً بي؟ معَكِ لا أُدَوِّن أو أسجِّل كلماتِكِ الباترَةَ كالنَّصْلِ. أستوعب كل حرف وأحفظه كاسمي واسمك واسم عمر ويوسف والحسن، ثم أعود لغرفتي، وأعيد كتابة ما سمعتُ وشَقِيتُ به.

"خزانة ألعابي، وعرائسي القطن، وباحة البيت الكبير –ضاعت. "البحرة" الصغيرة برذاذ مياهها الذي كُنَّا نرشُّه بأيدينا على بعضنا وأنا ألعب مع بنات عمومتي– غابت، وغِبْنا معها. ربيع ابن عَمَّتي كان يخبِّئني وراء ظهره حين يَهُمُّ أبي بضربي. كان يتحمَّل صفعاتِه بدلًا منِّي، إذا عاد أبي من العمل ولم يجد طعامه جاهزًا. دائمًا كان يعنِّفني إذا رآني خارجَ الدار بلا غطاءٍ للرَّأس، رغم أنه طالما مَلَّسَ شعري الكستنائيَّ بيديه منذ كنتُ طفلةً صغيرة بعد وفاة أمي. كان يقرصني من ذراعي بقسوة تترك آثارًا زرقاء لِعِدَّة أيام إذا لمحني خارِجةً من دورة المياه بملابس النوم. كنت أفزع حين أستيقظ فجأةً منتصفَ الليـل وأسمع صوت أنفاسه بقربي، وحين أهمُّ بالصراخ تتوالى الصفعات والركلات على جسمي كلِّه، لا ينقذني سوى جدَّتي أُمِّ مـازن التي تكون أوَّلَ مَن يصل إلى الغرفة. تحتضنني بحنان، وتبعد أبي عنِّي وتستغفر الله العَلِيَّ العظيم، وتدعوه أن يُزيلَ الغِشاوةَ عن عَيْنَـيْ أبي. في الصباح تَصُبُّ له الشاي، وتعاود

الإلحاحَ عليه كي يتزوَّج. في أوقاتٍ نادِرَةٍ كان أبي يحتضنني بعنف بعد عودته في المساء، لكنَّني كنتُ أَنْفُرُ من الرائحـة "البِشْعة" التي تنبعث من فمه، ولا أقوى على الفرار من حِضْنِه وعرقه وأنفاسه كريهة الرائحة. أظلُّ هكذا وعَيْنايَ على باب غرفة أمِّ مازن، وأدعو الله أن تُنْقِذَني مثانَتُها. أحيانًا يستجيب الله لدعواتي فتظهر جدَّتي فجأةً، تجذبني من حِضْنِ أبي بِعُنْفٍ، وتأخذني لأنام بجوارها، وتنسى الذَّهابَ لدورة المياه. وأحيانًا أخرى لا يستجيب لي الله، ربما لأنَّني كنت أرتكب الذنوبَ بِقَصْدٍ وبغير قَصْدٍ. أوَّلُ ذَنْبٍ لي أنَّني قتلتُ أمِّي أثناء ولادتي. كبرتُ بصورة زائِدَةٍ عن الحدِّ وأنا جنينٌ في أحشائها. تقـول عمَّاتي وخالاتي –وأحيانًا جدَّتي– أنني كنت ألتهم أكلها التهامًا؛ فيزداد حجمي وتتضاءل هي. ويقولون إنني سأحترق في نار جهنم لأنني امتصصتُ كلَّ الأكسجين من دمها وتركتها زرقاءَ مُخْتَنِقَةً، ويقولون إني نذير شُؤْمٍ، حَمَلَتْ بي وقتَ أن سَقَطَتْ أوَّلُ القذائف الكيماويَّة، فجاءت بذرتي مُلَوَّثَةً تُميت الأرض التي أُلْقِيَتْ بها، يقولون ويقولون ويقولون، وأظلُّ صامتةً. كبرتُ وحيدةً في منزل كبير به من العمَّات والأعمام والأقارب ما يزيد عن عدد المقاعد صباحًا، ومع أبي وجدَّتي أمِّ مازن مساء. باتت عرائس القطن رفيقاتي. تصنعها جدَّتي في أمسيات الصيف المُنْعِشَةِ في حلب، وأُمَزِّقُها مساءً بـشفرة حلاقة أبي، أو أحرقها في تَنُّور الخبيز بعد أن تنتهي الخالاتُ من تسوية خبزنا أسبوعيًّا. أنتظرهنَّ حتى يتركن باحةَ الدار، وأركض نحو التَّنُّور وهو لا يزال ساخنًا فأضع فيه العروسة القطن، وأظلُّ واقفةً إلى أن يحترق قطنها بالكامل، ويتحوَّل إلى رمـادٍ؛ لأعرف كيف سيعاقبني الله على قتلي لأمِّي. أقضم

رغيفي في اليـوم التالي، وأحاول أن أعرف أيَّ جـزء من الرغيف لامس جسد عروستي بعد احتراقها.

تَعِبَتْ جدَّتي من اختفاء عرائسي وعزوفي عن اللعب مع بنات الجيران؛ خوفًا من عقاب أبي إذا عاد فجأة قبل موعده فلا يجدني في الدار، ففكَّرَت في أن تأتي لي بِوَنِيسٍ في البيت: دجـاجـة أُرَبِّيها، وأقـدِّم لها الحَبَّ، وأجـري خلفها في الـدار، أو عصفوريْن في قفصٍ أقضـي وقتي في إطعامهما ومشاهدتهما وتنظيـف القفص من تحتـهما كل صبـاح، أو حوض سمك صغيـر به بعض السمكات البرتقالية أو الفضية، أو "بِسَّة" صغيرة تلهو معي. طلبَت من خالتي "عِزَّة" أن تصحبني لمحلٍّ لبيع الحيوانات الأليفة والطيـور لأختار من بينها "إشي" يبدِّد وحدتي. لا أعرف لِمَ اخْتَـرْتُها من بين جميع القابعات في الصندوق الخشبي مُخْتَبِئاتٍ داخـل الصَّدَفـاتِ السميكة! ربما لأنها تحديدًا تشبهني، أو ربما لأنها نظرت إليَّ بعينيـن ذابلتين تشبهانني! ولا أعرف أيضًا لماذا وافقت خالتي على طلبي، رغم أنني لمحتُ جدَّتي وهي تشدِّد على جملة عصفوريْن في قفص، وكأنَّها قرَّرَت مُسبقًا ما سنجلبه إلى المنزل! كان المحلُّ يكتظُّ بحيوانات أليفة وكائناتٍ لا أعرف اسمها. تجوَّلْتُ في المكان كي أستقرَّ على ونيسي القادم. لم أطلب من خالتي أن تشتري لي "بِسَّة" بِشَعْرٍ أسودَ ناعمٍ وعينين برَّاقتين، أعرف أنني سأنال العقابَ من أبي إذا عُدْتُ بها للدار، أو جروًا أعرف أن خالتي عِزَّة سترفضه لأنه نجس يستوجب الاغتسال بعد ملامسته كل مرة. الغريب أنني طلبتُ

سلحفاةً صغيرةً لا تهشُّ ولا تَنِشُّ، لا تُصْدِرُ صوتًا أو تتألَّم، ولا أراها معظم فترات النـهار ونصف شـهور السنة! والأغرب أنَّ خالتي وافقت على طلبي دون جدال.

"صابحة"، صاحبتي الصغيرة كانت أَبْعَدُ ما تكون عن "الونسة" والصُّحْبَة. لا تُصْدِرُ صوتًا أو تلبِّي نداءً، أو حتى ألحظها وهي تأكل أو تشرب. في الصيف لا أكاد أشعر بها، فقط أتبيَّن وجودها من اختفاء أوراق الخضرة بعد أيَّامٍ طويلة من تَرْكِها هنا أو هناك. أمَّا في الشتاء فأنسى أصلًا أن بالبيت سُلَحْفَاة.

دخلتْ "صابحة" بَياتَها الشتويَّ، ومع اقتراب فصل الدفء بدا أنها قد بدأتْ تتـرك مخبأها السِّرِّيَّ الذي لا يعرفُه أحدٌ سواها، وقادتها بلاهَتُها نحو تَنُّور الخبيز. لم أتبيَّن أنَّ "صابحة" كانتْ مختبِئَةً وسط ظلام الساحة، أو ربما تَبَيَّنْتُها وتجاهَلْتُ الأمرَ. لا أعرف يقينًا. جاءت خالاتي وبدأن في تزويد التَّنُّور بالحطب؛ تمهيدًا لإشعاله. بدأ الخشب في التَّوَهُّجِ، مُبَدِّدًا عَتَمَةَ المكان. لمحتُ صَدَفة صابحة وأرجلها ورأسها داخل التنُّور بوضوح جَلِيٍّ. كانت قابِعَةً هادِئَةً بلا حراك. بدأتْ حركةً بسيطةً واهِنَةً مع اشتداد حرارة التنُّور. تململتْ قليلًا. حاولتْ السير فلسعتها أقدامها، مدَّتْ رأسها وبانَ جلدُ رقبتها بثناياه وتجاعيده، نظرتْ للخارج فتلاقَتْ نظراتنا، سحبت قدميها الأماميتين داخل صدفتها، ثم الخلفيتين، ثم رأسها الواهن، اشـتدَّ وهـج التنور أكثر فأكثر، أغمضت

صابحة عينيها الذابلتين في استسلام، وأدخلت رأسها داخل صَدَفتها، وأغمضتُ عيني واستدرتُ نحو ركنٍ مُنْزَوٍ، وجلستُ أبكي بحزنٍ وألمٍ".

شاهدتْ غزل بعينيها البرميل المتفجِّرَ يسقط على بيت الجيران. جَرَتْ تنظر بعد الانفجار الكبير. رأت ضفيرةَ "فَجْر" صديقتها، ولم ترها. اختفت فجأةً الساحةُ الأماميَّةُ والجدار الذي يَحُدُّها، والزيتونة العتيقة التي تساقَطَتْ أوراقها قبل الميعاد، ورفيقاتها اللائي كُنَّ يلعبن حولها. كان عليها أن ترحل لديار جديدة، بلا ساحةٍ، ولا رفيقاتٍ، ولا زَعْتَرٍ بَرِّيٍّ، أو زيتونة تختبئ تحتها فتخفيها. كان أبوها يختفي عدَّةَ أيَّامٍ، ويظهر بعدها فجأة كما اختفى فجأة. ساءت طِباعُه أكثر ممَّا كانت عليه، واكتأبت جدَّتُها أمُّ مازن مع كلِّ نبأ جديد عن فَقْدٍ أو اختفاء الأحِبَّة. وذات يوم ككلِّ الأيام، وليس مثلها في شيء، دَوَّت الانفجارات في كل مكان، وأُضيئَتْ السماءُ وأظلمت. سيول سقطت من السماء لم تعرف غزل هل كانت مطرًا أم قذائِفَ أم أشلاءً تفجَّرَت وتساقطتْ على أرضها سعيًا وراء مدفن يواريها. جَرَتْ في ناحية، وأمُّ مازن في ناحية أخرى. كان المكان مُظْلِمًا تفوح منه رائحة العَفَنِ والرَّوَثِ وطَفْحِ المجاري. تعثَّرَتْ في كومة تِبْنٍ فارتَمَتْ عليها.

بدأت غزل تبكي وتشهق:

"سمعتُ أصوات أقدام كثيرة تقترب مني. لم أستطع الاستغاثة بِـ"سِتِّي" أم مازن. كتمتُ أنفاسي، لكنهم اكتشفوا مكاني. أتوا إليَّ واحدًا تلو الآخر. جذبوا إيشاربي الأبيض الذي كان أبويا يعنِّفني بسببه إن رآني خارج المنزل

دون ارتدائه. جرَّدوني من ملابسي، وتناوبوا على اغتصابي. كانت السماء تضيء للحظات تكشف وجوههم: بعض الشَّبِّيحة، وجه أبي، وجوه أعمامي وأخوالي، جنود بملابس الجيش الحر وجنود بشَّار والجيران، ووجه أبي مرة أخرى. لا أعلم عددهم تحديدًا. كل مَن عرفته وصادفته اغتصبني، ما عدا ربيع ابن عَمتي لم يكن من بينهم. ظللتُ هكذا حتى وجدَتْنِي أمُّ مازن، غطَّتني بإيشارب مُتَّسِخٍ شككت في أنه لها، فغطاء رأسها كان ناصِعَ البياض قبل اختفائها، وانطلقنـا نجري في كل اتجاه. كانت تلطم خدَّيْها، وتلطم وجهي وتصفعني وتحضنني ثم تولول. غبتُ عن الوعي، وكنت أفيق على اهتزاز الشاحنة على الطريق، ونُواحِ خالاتي بجانبنا، وصراخ الأطفال، وقَيْئِهم، وبَوْلِهم، وبُرَازِهِم إلى أن وصلنا لمخيَّم الزعتري".

* * *

12

وعـــد

التقرير اللعين لا يريد أن ينتهي. كل زيارة وكل خيمة وكل أسرة تختلف وتتشابه. كان من الأجدر أن أكتفي بأُسْرَةٍ واحدةٍ، وأنسخ حكايتها آلافَ المرات. قائمة الطلبات التي نُدَوِّنُها أيضًا تكاد تتشابه. أحيانًا نستمع لرغبة بعض اللاجئين في الانتقال للمخيَّم الإماراتي وسط مدينة عمَّان. كلمة الإماراتي لها سحرها؛ يتصوَّرون أن الجنة في انتظارهم هناك. يشحب أمل العودة للديار، فتصبح غاية المنتهى مُخَيَّمًا أكثر تَرَفًا. أُدَوِّن المطالِبَ كما سمعتها وأضيف إلى قائمة الأغطية والملاءات والمواقد "غشاءً للبكارة".

تُمازِحُني ألما وتحاوِلُ أن تُخَفِّفَ عنِّي وطأةَ العمل والزيارات. تُخَمِّن في الصباح أي موقع سيتعرَّضُ للقصف، وأي مدينة سنستقبل لاجئيها، حماة أَمْ درعا أو ربَّما ريف دمشق أو إدلب. تلمع عيناها، ويشطح خيالها: "يمكن هون بيقصفوا سيارتنا". وتشير من النافذة للسيَّارة التويوتا ذات الدفع الرباعي الرابضة بهوائيٍّ ضَخْمٍ على سقفها، يقف منتصبًا كقرن الخرتيت، وكان دائمًا مثار نكاتها الخليعة.

لم يعرف الحُبُّ طريقًا لقلب ألما مَرَّةً، ولكنه عرف طريقه لأماكن أخرى من جسدها مرَّاتٍ، آخرها أَمْسِ، مع مسؤول الأمن البلجيكي. تأتي ضاحكةً تُمازِحُني وتُلقي نظرةً خاطفةً على الآيباد فتلمح صورةً لـ"علي" حفظتها على الشاشة وهو يرتدي بيجامةً زرقاءَ ويحتضن ابنته الصغيرة. تخطف الجهاز من أمامي وتزيحني بكتفها وأنا أحاول استعادة كنزي الثمين من بين يديها:

"Interesting!"

تقولها باللغة الإنجليزية وهي تُحَدِّقُ في وجهه، ثم تضيف:

"بيچاما عتيقة، شعر مچعَّد، شوارب مِثْلِ السبعينات وشِفَّه رفيعة لو باسني بيها لاستعنتُ بصديق بعدها!"

أبتسم لها وأنا أستعيد مَذاقَهُ في فمي وروحي، وأقول لنفسي قبل أن أقولَ لها وأنا أُحَدِّقُ في صورته:

"مسكينة أنتِ يا ألما، مَن ذاقَ عرف"

لعَّبَت "ألما" حاجبيها ولَكَزَتْنِي مرَّةً ثانية بكتفها، وقالت مستكملةً ما بَدَأْتُهُ:

"ومَن عرفَ اغترف"

"أَصَبْتِ كَبِدَ الحقيقة يا ألما"

أضافت بلهجة مصريَّةٍ لم تتعب في إتقانها:

"يااااه. كَبد دي قديمة أوي! كَبِد إيه يا أم كبد إنتي. ده كُـ... الحقيقة، والا أقولك، كُـ... أخت الحقيقة، وكُـ... أخت الوهم اللي عايشه فيه من ساعة ما چينا المحروقة دي. قومي اغرفي واشربي قبل ما نموت من حكايات اللاچئين والَّا من قيادة چسَّار الأرعن".

أتطلَّع بعيدًا ولا أُعَلِّق. أضافت بصوت فيه استعطاف مُفْتَعَلٌ:

"خدمة إنسانية إذا بتريدي"

"هاتي م الآخر"

"فيكي تعملي مقابلات اليوم مَحَلِّي؟ ديفيد ناطرني بِغُرفته. Pleeease"

هززتُ رأسي رفضًا أُمازِحُها، فخطَفَتْ منِّي دفتري وهدَّدَتْ بإلقائه من النافـذة. شـددتُه من يـدهـا ونحن نضحـك. اتَّجَهَتْ ناحيةَ باب الغرفة وهي فَرِحَةٌ، ترفع غُرَّتها الشقراء من فوق جبينها وترسل لي قُبْلَةَ

امتنانٍ. ألقتْ نظرة على التقرير فوقعت عيناها على الجملة الأخيرة. أطلقت صفيرًا خافتًا:

"غشاء بكارة! شو ها الخرا؟ البلد كلياته إنتا... ولسه في حَدَنْ عم بيْفَكِّر بغشاء بكارته؟"

بحر العجمي مختلفٌ في الخامسة صباحًا. المياه داكِنَةٌ والموج صامِتٌ، والرملُ رطبٌ فاقِدٌ لتوهُّجِه.

أَدَرْتُ رقم هاتف البيت من كابينة التليفون العمومية الموجودة على الشاطئ المقابل للشاليه، جاءني صوت أمِّي ناعسًا قَلِقًا:

"ألو"

"ماما"

"حبيبتي. فيه إيه؟ إنتى بخير؟ جوزك كويِّس؟ مالك؟"

"مفيش يا ماما. كنت عاوزة أطَمِّنِك بس زي ما وصيتينى"

"يا حبيبتي! ألف مبروك! ألف ألف مبروك! وإيه اللي نَزِّلك من الشاليه؟ تاخدى برد يا روحي. ارجعي دلوقت ودفِّي نفسك. مبروك يا حبيبتى!"

تركتُ سَمَّاعة الهاتف ونصيحة أمي داخل كابينة التليفون واندفعتُ نحو البحر. تَقَلُّصاتٌ في النصف الأسفل من جسدي تجتاحني. وضعتُ

يدي بين فَخِذَيَّ كي أَكْتُمَ الألم. بلعتُ ريقـي بصعوبةٍ بالغة، وارتميتُ على "الشيزلونج" البلاستيك القريب من البحر.

فردَتُ جسمي المُتَخَشِّبَ من البرد والألم بعد مجهود. توسَّدَتُ ذراعي وتَطَلَّعْتُ نحو السماء. بدأت الشمسُ تَبْزُغُ بخجلٍ من وراء غيمة بعيدة عازِمَةٍ على تلوين لَوْحَةٍ، بعد أن كانت بالأبيض والأسود، وعلى الجانب الآخر كان القمر يَهُمُّ بمُغادَرةِ الحفل كآخر المَدْعُوِّين.

انتهت الزَّفَّة في الطابـق الأرضـي من الفـندق المجاور لمطار القاهرة، وصعدنا إلى غرفتـنا التي حصلنـا عليها كهديَّةٍ لكلِّ عروسَيْن يقيمان عُرْسَهُمَا في الفندق ليبيتا فيها ليلة الزفاف. دَخَلْتُ الغرفةَ بقوة القصور الذاتي. منذ أعوام طويلة قطعتُ وعدًا على نفسي ألَّا أكون إلَّا لـ"علي". شاهدنا فيلم "وجهًا لوجه" في نادي السينما، غادرنا، ولم نَلْتَقِ بعدها. واليوم يأخذني غيره وأَحْنَثُ بوعدي.

أخذتُ قميص النوم الأبيض والروب الأبيض والطقم الداخلي الأبيض من الدولاب، ودَخَلْتُ الحمَّامَ كي أغسل جسمي وأتعطَّر كما أَوْصَتْنِي أمِّي. ملأتُ البانيو بالماء الدافئ، وضَمَمْتُ رُكْبَتَيَّ إلى صدري، وخبَّأتُ رأسي بينهما.

لم ينتظرني حتى أخـرج. لم يَقْرَعْ البـاب. رَكَلَهُ بِعُنْفٍ كما لو كان يَشُنُّ هجومًا على وَكْرٍ لِلُّصوصِ أو شَقَّةٍ مشبوهة. أجفلتُ، وارتعش جسمي من اندفاع تيَّار الهواء البارد داخل الحمَّام. شعرتُ بِحَرَجٍ شديد من عُرْيِي! لم أتوقَّع هذه البداية أبدًا. طوَّق بِعُنْفٍ خَصْرِي الـمُبْتَلَّ، جذبني خارج البانيو وحملني إلى السرير. أمسك بذراعيَّ الاثنتين وهو مبتسم،

ولَفَّهُمَا خلف ظهري كمُجْرِمٍ ألقى القَبْضَ عليه ويخشى فرارَهُ. ارتمى عليَّ بفظاظةٍ وحاول أن يدسَّ نَفْسَهُ بداخلي.

بكيتُ بصوتٍ عالٍ واعتذرت لـ"علي" في سِرِّي. نهض من فوقي والعرق يتصبَّب من جسده. ابتسم في خَجَلٍ، ثم ضحك بصوت عَصَبيٍّ عالٍ:

"محاولة اقتحام فاشلة. استراحة ونعود."

غـادَرْنا الفنـدقَ في الصَّباح، وتوجَّهْنا إلى شاطئ العجمي. شاليه صغير في مواجهة البحر، استعار مفتاحَه من صديقٍ له لقضاء "شهر العسل". تكرَّرَت المحـاولاتُ على مدى الأيـام السِّتَّة التاليـة. ومع مرور الوقت ازداد توتُّره، وازداد تورُّمي، وفي اليوم السابع قرَّر اللجوء لطبيبة أمراض نساء.

ارتدت الطبيبة القُفَّازَ الطبيَّ الأبيض وباعـدت بين الساقين، بعد أن سَلَّطَتْ على نصفي السُّفْلِيِّ كشَّافًا أصفـر ساطِعًا. رقـدتُ مُسْتَسْلِمَةً تمامًا، دون اعتراضٍ أو امْتِعاضٍ. ابتسمت الطبيبة بعد الكشف، ونادت على "العريس":

"يا باشا، المشكلة في العروسة. مطَّاطي وسميك جدًّا"

"طَبْ والعمل يا دكتورة؟ أنا شكلي بقى وحش قوي قدَّامها"

ضحكت الطبيبة وهزَّت رأسها:

"المشكلة عندها. والله لو أبو زيـد الهـلالي كان جَابْها عنـدي. حاجة بسيطة خالص، هاعمل تشريطات خفيفة علشان تساعد"

مدَّت الطبيبة يدها وأخذت زجاجة اسبراي بيضاء صغيرة من على المنضدة ذات العجلات المجاورة لسرير الكشف. اعترض يدها سائلًا:

"إيه القزازة دي؟"

"بنج موضعي علشان يخفِّف الألم"

"لأ. من غير بنج. هو أنا كنت هارُشّ لها بنج الأول!"

هزَّت الطبيبة رأسها مُؤَمِّنةً على كلامه، وأعادت البنج إلى المنضدة.

لمع المبضع في يد الطبيبة. اقتربتْ مني وطلبت منه أن يساعدها في تثبيت الفخذين بقوَّة حتى لا أتحرَّك وأتسبَّب في حدوث جرح غائر، ثم أنارت كشَّافًا آخر. دبَّ النشاطُ فيه فجأةً، واقترب بِخِفَّةِ الفهد قبل أن يُطْبِقَ على فريسته، ضغط بكلِّ قوَّته على فَخِذَيَّ مُباعِدًا بين السَّاقَيْن قَدْرَ الإمكان، وهو يبتسم لي.

صفعتْني رائحة الكحول النفَّاذة، ووجه الطبيبة الذي يشبه الضفدع. تطلَّعَتُ لسقف الغرفة. مرآة ضخمة تغطِّي جزءًا كبيرًا من السقف. رأيت نصفي العاري والمبضع اللامع والطبيبة وزوجي، كما لو كنت أشاهد فيلمًا عن عملية جراحية لشخص غريبٍ عني. بدأت الدموع تنهمر من عينيَّ فاهتزَّت الصورة في مرآة السقف. مَدَدْتُ يدي ومسحت دموعي فوضحت الصورة مرة ثانية في المرآة. اقترب المبضع البارد من جسدي فزاد من ضغطه على الفخذين. شعرتُ بسيخ من نار يشقُّ جسدي ويكويني، بدءًا من السطح الخارجي ثم ينفذ تدريجيًّا داخلي. تلوَّنَت المرآةُ ببقع حمراء. مدَّ أصابعه وبللها من الجرح. لمعت عيناه

في نشوة وإثارة أعرفهما. نحَّى الطبيبةَ جانبًا بعد أن شكرها، جذبني من مرقدي وأسندني حتى وقفت على الأرض، قبَّلني في جبيني بعنف، وغادرنا العيادة، دفعني في السيارة وقادها بأقصى سرعة عائدًا بنا إلى الشاليه.

باشر عمليات الاقتحام المتكرِّرة بعد أن أسقطت الطبيبة الحواجز أمامه غير عابئٍ بآلامي ونزيفي، استمرَّ هكذا حتى قاربت الساعة الخامسة صباحًا. ارتدى بنطلون البيجاما وأدار ظهره وغرق في النوم.

قمتُ بإعياءٍ وألَمٍ شديدَيْن من جواره. سرتُ مَحنْيَّةً، استندت بكلتا يديَّ على "الكمودينو" المجاور للسرير والطاولة المستديرة و"الفوتيه" الضخم، حتى وصلت إلى الحمَّام. ملأتُ البانيو بماءٍ دافئ، ووضعت نقطتين من الديتول كما أوصتني أمي. ضَمَمْتُ رُكْبَتَيَّ إلى صدري، وخبَّأتُ رأسي بينهما.

ارتدَيتُ جيبة حرير زرقاء واسعة بحزام أبيض عريض، وبلوزة بيضاء بلا أكمام، لها ياقة صغيرة مثل ياقة المريلة البيج المصنوعة من قماش تيل نادية التي كنت أرتديها في المدرسة الابتدائية. فتحَتُ باب الشاليه وذهبتُ كي أُطَمْئِنَ أمِّي أنني بخير، وأرى البحر، وأُسِرّ لـ"علي" أنني لم أكن لغيره.

أفقت من أوهامي لأكمل التقرير وأوثِّق طَلباتِ اللاجئين واللاجئات، وأفكِّر جَدِّيًّا في الذهاب لمدينة نالْتْشِك مع الشركسية وأمها وسائر النسوة بعد الانتهاء من هذه البعثة. ربما كانت "أم مازن" مُحِقَّةً في طَلَبِها!

* * *

13

الدكتور فولك

لفَّتْ "ألما" حول رقبتها الشالَ السميك الذي اشتريناه معًا أثناء زيارتنا الأخيرة لسوق الشانزيليزيه، كان صناعةً يدويَّةً لإحدى نساء المخيَّم، استرعى انتباهَ ألما وقرَّرَت على الفور أن تشتريه، بل دفعت فيه ضعف الثمن الذي حدَّدَه البائع. برزت ورودُه البيضاء المشغولة بـ"الكورشيه" كأزهار الياسمين المتفتِّحَة، أمسكتْ كلَّ زهرةٍ بالأخرى كأطفال الحضانة في طابور الصباح بأفرع رقيقة بيضاء أيضًا غُزلت بعناية فائقة، وبالرغم من تعلُّق ألما بهذا الشال لم تبخل به على الدكتور "فولك". اشتدَّ البرد علينا داخل المخيَّم،

وكُنَّا مضطرِّين للتَّجَوُّل سَيْرًا على الأقدام لأن الأزِقَّة الضيِّقَةَ وطَفْحَ المجاري يَحُول دون تحرُّكِ السيَّارة "الڤـان" المُخَصَّصَة لتَنَقُّلات البَعْثَةِ الأُمَمِيَّة.

ارتعش الدكتور فولك من شـدَّة البـرد، فما كان من ألما إلا أن خلعت شالها الأبيض ولفَّتْه على رقبته. تَـمَنَّع خجلاً، ثم وافق أخيرًا أمام إلحاحها وقسوة الطقس الأشدِّ إلحاحًا.

أنهينا زيارَتَنا وانطلقنا عائدين، أنا والدكتور فولك إلى فندق "لاندمارك"، بينما طلبت منَّا ألما أن نوقف السيارة على جانب الطريق لتستقلَّ سيارة أجرة لأحد المطاعم لمُلاقاةِ بعض أصدقائها. حاول الدكتور فولك أن يُعيد الشال لألما؛ فربَّما يشتدُّ البَرْدُ وتحتاجه في المساء عند عودتها، لكنها رفضت بشدَّة، وطلبت منه أن يُبقيه معه للغد حتى لا يُصابَ بِبَرْدٍ أو احتقان في الحلق، وأن يعطيه لي إذا لم تعمل معنا صباح اليوم التالي.

جلس الدكتـور فولك بأعوامـه السبعين على المقعد الخلفـي للسيارة، وجلستُ أنا بجوار السائق جسَّار. نظرتُ في المرآة الجانبيَّة، فلمحته يمسك بطرف الشال ويُحْكِمُ لَفَّهُ حول رقبته، سعيدًا بدفء غير مُتَوَقَّع.

"هل تعتقدين أنني عجـوز خَرِف؟"

قذف الدكتور فولك بهذا السـؤال بلا أي اكتـراث، ووَجْهُهُ في الاتجاه الآخر كما لو كان يُحَدِّثُ نَفْسَهُ. ارتبكتُ قليلًا، لست واثِقَةً من أنني المَعْنِيَّةُ، فالتَفَتُّ إليه حتى أصبح في مُواجَهَتي تمامًا، وكرَّر السؤالَ مُصَوِّبًا إلى نظراتِه الحادَّةَ هذه المرَّة.

استطرد، دون أن ينتظر ردِّي، فحرَّرَني من عبء الإجابة على سؤالٍ طالما ردَّدْتُه بيني وبين نفسي: ما الذي يجعل إنسانًا في بلادٍ بعيدةٍ، له حياة مُسْتَقِرَّةٌ، وسط مجتمع أتصوَّر أنَّه مُتَجانِسٌ، يتكلَّم لُغَتَهُ، يأكل طعامه الذي تكوَّنَتْ منه خلاياه، ويستمع إلى أغنياته، ويفهم شتائِمَه ما الذي يجعله يترك كلَّ هذا ويأتي إلى بلادٍ أخرى، ويُجالِسُ بَشَرًا لا يعرفهم، ويعيش مآسيهم، ويستمع إلى حكاياتهم من خلال مُتَرْجِمَةٍ قد تضيف وتَحْذِفُ، وتفشلُ أَلْفَ مَرَّةٍ في إيصال مدى عُمْقِ المأساة داخلهم؟ بالطبع هو عَجوزٌ خَرِفٌ، أو هكذا يبدو لأيِّ غريب. لكن بالنسبة لي، فولك لم يكن خَرِفًا، ألم أترك بلدي وناسي عندما عَلِمْتُ أنَّه لم يَبْقَ في العمر بَقِيَّةٌ؟ أَلَمْ تترك النَّاقةُ والعنزة والمُهْرَة والشركسيَّةُ وألما بلادَهُنَّ وأَتَيْنَ جميعًا إلى هنا لأسباب مختلفة؟ ألم يترك اللاجئون واللاجئات وطنَهم قَسْرًا؟ التَّرْحالُ والاغتراب واحِدٌ، وإن تعدَّدَت الأسباب، سواء طوعًا أو كرهًا. ربما تُوافينا جميعًا نفس الكوابيس الليلية، لكن بشخصيَّاتٍ وأسماء مختلفة. هي مسرحيَّة عَبَثِيَّةٌ تُعادُ كلَّ يوم على مسرح جديد، بِمُمَثِّلين و"كومبارس" مختلفين، ليس إلَّا.

"أحببت رولا". تحدَّث الدكتور فولك، بينما بدأ جسَّار السائق يقود السيارة على المنحدر الواصِلِ من جبل عَمَّان حيث المُخَيَّمات حتى وسط المدينة. أسرع بالسَّيَّارة وانطلق غيرَ مُبالٍ بمياه الأمطار المُتَجَمِّعَةِ في الطُّرُقاتِ،

والتي جعلت الطُّرُقَ المُنْحَدِرَةَ زَلِقَةً وخطيرة في آنٍ. خَلَتْ الشوارعُ من المارَّة، وأقفل أصحابُ المَحالِّ أبوابَها، وهَجَرَتْ حتى الكلابُ الضَّالَّةُ الشوارِعَ التي لَمَعَتْ طُرقاتُها قبل حلول الظلام.

"رولا فلسطينية من رام الله". واصل كلامه: "تعرَّفْتُ إليها في أول زيارة لي للمنطقة في بَعْثَةِ تَقَصِّي الحقائق. لم أَكُنْ مُتَحَمِّسًا في البداية بعد عِدَّة بعثات في مناطِقَ يطلقون عليها "ساخنة" حتى لو انخفضت درجات الحرارة بها إلى 20 درجة تحت الصفر. ذهبتُ إلى البوسنة والهرسك، وأرمينيا، وإقليم الباسك، وجنوب استراليا، والصحراء الكبرى، وكشمير، ودارفور، وغيرها، ممَّا لا أستطيع تَذَكُّرَه الآن، فهل اختلفَت رولا عن كلِّ مَنْ قابَلْتُهُم؟ وهل اختلفت رام الله عن كل الأماكن التي زُرْتُها؟

نعم ولا. رولا كانت غاضِبَةً كرأسٍ نوويٍّ مُعَدٍّ للإطلاق في انتظار ضغطة زِرٍّ. قذفتني بِعِدَّةِ حَصَواتٍ صغيرةٍ في أول لقاء لنا. قالت لي بالإنجليزية: "fuck off my country". تَفَهَّمْتُ غضبها وتَشَكُّكَها في كلِّ مَن يأتي للإصغاء إليهم. كانت تعرف وكنت أعرف أن كلَّ بعثةٍ حقوقيَّةٍ تُسْفِرُ فقط عن تقرير مُطَوَّلٍ يُكْتَبُ ويُطْبَعُ على أوراقٍ دمَّرْنا غاباتِ الأمازون من أجل صناعتها. لَمْتُ الحَصَى الصغير، وأعدته إليها. سَبْعُ حَصَياتٍ. قُلْتُ لها "ادِّخِريه لِعَدُوٍّ." أخذتْ الحصى منِّي، وقذفته في وجهي مرة أخرى، ولكنها ألقت في وجهي بِستِّ حَصَياتٍ فقط، واحتفظتْ بواحدة. في كلِّ مرَّةٍ كنتُ أعيد إليها الحصى تقذفه في وجهي، لكن بحصاةٍ أقلَّ، إلى أن توقَّفَتْ تمامًا

ووضعت الحصى في جيبها الصغير، وبدأت في الحديث.

تعدَّدَت اللقاءاتُ بيننا. ازداد التقارُب، وقَلَّ الغضب. عرفتُ أن رولا وطني الجديد. عيناها العسليَّتان مَرْفَئِي. شعرها الفاحِمُ الغزير الذي تَأْبَى تَمْشِيطَهُ يُشْعِرُني بالـحُرِّيَّة في وطن مُسْتَلَبٍ، إنجليزيَّتها التي تقتصر فقط على السباب اتَّسَعَت لتشمل مُفْرَدَاتٍ وعباراتٍ أخرى. قلتُ لها فَلْنَنْسَ مآسي الاحتلالِ التي أعرف عنها من الآخرين. فَلْتَكُنْ لقاءاتُنا لِتَعَلُّم اللغة. تُعَلِّمُني اللغةَ العربيَّةَ وأُعلِّمُها اللغةَ الإنجليزيَّة. في الحقيقة تعلَّمْتُ منها ما هو أكبر من اللغة.

كنتُ قد جاوَزْتُ الخمسين وقتَها، وكانت شابَّةً يافِعَةً تَنْضَحُ بِحَيَوِيَّةٍ ونشاطٍ وتَـمَرُّدٍ ونِقْمَةٍ وسَخَطٍ وحُبٍّ لا مُتَناهٍ لكلِّ ما هو جميل. تغيَّرَت رولا كما تقول بفضلي، وأقول نَضَجْتُ بِفَضْلِها، وعرفتُ معنى أن تَجِدَ سعادةً في العطاء حتى لو كان المقابِلَ حصاةٌ تُلْقَى عليكَ. واظبْتُ على الذهاب لرام الله كل شهر طوال العشرين عامًا الماضية، حتى بعد أن غادَرَتْها رولا إلى المجر، حيث يقيم أحدُ أقاربها. كنت أراها لا تزال في رام الله حتى في غيابها. أشمُّها في رائحة الزَّعْتَر البرِّيِّ، أرى شَعْرَها المتوحِّشَ في أعشاب الأرض التي تنمو رغم "بيادات" العساكر وثِقَلِ الدبَّابات. كل زيارة لي هي موعِدٌ معها ولها، ولقضيَّةٍ وَهَبْتُ نفسي للدفاع عنها وعن كل المُسْتَضْعَفين في الأرض".

أنهى الدكتور فولك حديثَه واسـتدار مرَّةً أخرى ناحية نافذة السيارة.

صَمَتَ فجأةً كما تحدَّث فجأة، كأنه أراد فقط أن يبوح بصوت عالٍ، دون انتظار لردٍّ أو تعليق. لم أعرف هل كنتُ أشعر بالأسى أم بالاستخفاف لقصَّةِ حُبٍّ غير مكتملة، أين ذهبت دموعي التي كانت تَسِحُّ طويلًا عند سماعي لأغنية حزينة أو موسيقى ساحرة، أو رؤية قمر فضِّيٍّ يختفي وسط ضباب المدينة؟ تغيَّرْتُ يا دكتور فولك، أو "تَمْسَحَتْ" جلودُنا على حدِّ تعبير المُهْرَة المازِحَة. أصبحتْ مشاعري كجلد تمساحٍ بحراشِيفَ سميكةٍ قويَّةٍ تحمي هشاشتي، وتعينني على احتمال قسوة الحياة ومرارة الفَقْدِ والوجع المتكرِّر. غفوتُ في مقعدي، وغفا الدكتور فولك في مقعده، ويبدو أن جسَّار قد غفا أيضًا في مقعد القيادة.

اندفعت السيارة بشدَّة نحو الجدار الإسمنتي الذي يفصل بين الاتجاهين. ارتطم رأس الدكتور فولك بزجاج السيارة. نظرتُ له بجزع فوجدته مستندًا برأسه إلى الزجاج الجانبي وهو غارق في دمائه. انتقلتُ كما لو كنتُ أؤدِّي فقرة بهلوانية في سيرك من مقعدي الأمامي إلى المقعد الخلفي. رفعتُ وجهه فنظر إليَّ وقد تبدَّلتْ ألوانه جميعها. استحالت عيناه الزرقاوان إلى لون رمادي باهت، وتغيَّر وجهه المُحْتَقِنُ من برد المخيَّم ودفء الشال إلى لون أصفر شاحب وابيضَّت شفتاه.

رفعتُ الشال عن رقبته وبدأت أُحكمُ لفه على رأسه النازف. أمسك بيدي وضغط بها على جانبي رأسه فوق الشال. شعرت ببلل تحت يدي رغم سُمْكِ الصُّوف. بدأت الورود البيضاء واحدة تلو الأخرى تتبدَّل

تدريجيًّا إلى اللون الأحمر. تحمَرُّ وردة عند أطرافها أوَّلًا، ثم يَسْرِي الدَّمُ كالنَّسْغِ في عروقها الدقيقة التي تربط بين زهور الياسمين. وما إن تتحوَّل وردةٌ إلى اللون الأحمر القاني حتى تروي جارَتَها بما يفيض منها.

نظـرتُ في عَيْنَيْ الدكتــور فولك فرأيت طفـلًا صغـيرًا يتألَّم بكبرياء. شـعرتُ بضيق شـديد وحيرةٍ أشد، وشـعور بذنب لم أقترفه. أعرف هذا الشعور عندما أرتكب ذنوبي الصغيرة لأسباب مجهولة، وأحيانًا بلا سبب على الإطلاق! غابـت البعثة المُقْبِضَةُ، وغـاب الطريـق، وغـاب الدكتور فولك وحبيبته رولا، ولم يتبقَّ سـوى هاجس مُزْعِجٍ أَوْحَد. كيف أُنَظِّفُ الشَّالَ الأبيض وأعيده ناصعًا لألما كما كان؟

* * *

14

حُــقّ النشــوق

مَعْذِرَةً يا أمّي؛ تركتُكِ وحيدةً وقبلتُ العمل في هذه البعثة الحمقاء بعد أن فَقَدْتِ اثنتين من بناتك: "عالية" البكريَّة في حادث سيارة ميكروباص، وكانت الحبيبة القريبة إلى قلبك، المُؤْنِسَة لوحدتك والمُلَبِّيَة لطلباتك النَّزِقَة. ترك السائِقُ الأَرْعَنُ الشارعَ العريضَ ليصعد فوق الرصيف الذي كانت تقف عليه أثناءَ انتظارها سيَّارةَ العمل التي تُقِلُّها لمزرعة أبو رواش، أو "واحتها الخضراء" كما كانت تُسمِّيها، فهي المهندسة الزراعية المسؤولة عن مزرعة الوزارة التجريبية. لطالما أحضرت لنا "البيكَّان" شبيهَ عَيْنِ الجمل الذي

لا يَقِلُّ عنه قيمةً غذائيَّةً، رغم الفارق الرهيب في سعر البيكان المصري عن الجوز المستورد. جاهَدَتْ لتعميم زراعته، لكنها لم تَقْوَ على التصدِّي لمافيا الاستيراد وأتباعها داخل الوزارة، فاقتصر الأمر على عِدَّة شُجَيْراتٍ يُنْقَلُ محصولها في جوالات معدودة لكبار المسؤولين داخل الوزارة ولسادَتِهم خارجها. زرعتْ أنواع المانجو النادرة وحقَّقت نتائج هائلة وقُضي على مشروعها لذات السبب، لكن لصالح أصحاب المزارع المحتكرين للسوق بمحاصيلهم هذه المرَّة. ماتت بِكْرِيَّتُكِ يا أمِّي، ابنتُك وسَنَدُكِ، مَن كُنْتِ تَدَّخِرينها للوقوف على غُسْلِكِ دوننا جميعًا، غابت عن عالمها وعالمك بعد سبع ساعات قَضَتْها في مستشفى الهرم تُعاني من نزيف في المخ دون طبيب متخصِّص، ثم فقدتِ الثانية "نايلة" التي تصغرها بعام وكانت مَصْدَرَ تمويلك وحافظةَ نقودك وكاتِمَةَ أسرارك ورفيقتك في زياراتك أيام الآحاد لمسجد السيدة نفيسة، توزِّعان أرغفة الأرز باللحمة والنقود والبلح "الإبريمو" الناشف على الغني والفقير، وتعودان مبتهِجَتَيْن مُنْتَشيتيْن من أثر الزيارة التي أسعدَتْكُما قبل أن تُسْعِدَ الآخرين والأخريات. لم أستطِعْ أن أكون أيًّا منهما لك، لم أَقْوَ على مواجهتكِ أو الوقوف إلى جانبك، تَرَكْتُكِ وغادَرْتُ بعد وفاة نايلة بأيَّام؛ كان الحزن يقتلني، وكلَّما تَأَلَّمْتُ نَبَتَتْ لي أنيابٌ جديدة قويَّة عنيدة، أغرزها في وجه كُلِّ مَن يلومني على قبولي العملَ بينما لم يَمُرَّ أسبوعٌ على وفاة أختي الثانية، وعلى تَرْكِي لأمي ولم يَعُدْ لها من ابنةٍ سواي. ظلَّ إحساس الذنب يطاردني أينما ذهبتُ، في يقظتي ومنامي وما بينهما، أشعر دومًا بأنني مُذْنِبَةٌ في حقِّ أقرب الناس إليَّ، بل في حقِّ نفسي قبل

الجميع. شعرت بالذنب تجاه أمّي التي تخلَّيْتُ عنها بعد الوفاة. هذه ابنتها الثانية تُخْطَفُ منها (على حياة عينها)، تلك الجملة التي كانت تُـمَزِّقني؛ فأصمتُ، في حين يرتفع بكاء المُتَحَلِّقات حولها، ويُسارِعْنَ لِضَمِّها بين صدورهنَّ بينما أنزوي أنا في ركنٍ بعيد.

حينما يَدْفِنُ الأبناءُ الآباءَ تكون دورةُ الطبيعة قد اكتملت، فنتلقَّى الخبرَ بهدوءٍ وأحيانًا بارتياح، لكن عندما يَدْفِنُ الآباءُ الأبناءَ نعجز عن الفَهْم، وتَنْبُتُ في الرِّئَتَيْن غُصَّةٌ تظلُّ قابِعَةً لا تزول. فقدتْ أمي بكريَّتَها، ثم فقدتْ الثانية بسبب مرض السرطان. لم يكن حزن أمي على ابنتها الثانية -رغم ثِقَلِه أيضًا- قَـدْرَ حُزْنِها على الأولى. ربما خفَّفَتْ عنها سنوات مرضها ورحلة علاجها بالكيماوي والإشعاعي وعمليات البتر المتكرِّرة لجزءٍ تِلْوَ الآخر من جسدها - وطـأة الرحيل، فالمرض أحيانًا يكون كالبرق الذي يسبق هطولَ المطر ويجعلنا واثقين من هطوله. مع كل وفاة كانت تتطلَّع إليَّ؛ أنا الابنة الصغرى، القريبة لقلبها، تقترب منِّي بِحُبٍّ وخوف من أن تفقدني، وأبتعد عنها بقسوة لا أفهمها. تغيَّرَت أمِّي تمامًا، زاد شرودها، وزاد خوفها عليَّ وتَعَلُّقُها المَرَضِيُّ بي، وزاد ابتعادي عنها! قَلَّتْ زياراتي لها عقب الوفاة، رغم أن الجميع وأوَّلهم أمِّي كانت تتوقَّع العكسَ تمامًا، وبعد زيارتي للمستشفى في فيينا وتأكُّـدي من نتيجة التحاليل هدأ قليلاً شعوري بالذنب تجاه أمي، بل بدأت أوقن أن ما أفعله هو عَيْنُ الصواب، تمامًا كتعامُلي أو تَجاهُلي لكلِّ ذنوبي السابقة واللاحقة.

كانت العلبة مستديرةً غامضةً ساحرة. في حجم قُرص الطعمية الصغير، يزيِّنها من أعلى نقوشٌ بارزةٌ بالأسود والذَّهَبِيِّ للكعبة الشريفة، ومئذنتان تتلألأ أضواؤهما وسط ظلام الحجرة، ومن أسفل تُزيِّنها انبعاجاتُ الزمن. "حُقّ النشوق" هو كنز "جدِّي حسن"، وأنيس وحدته، وسبب شجار دائم بينه وبين "نينة زكية" لما له من آثار لزجة داكنة على مناديله القماش، وجدران الغرفة، ومُلاءات السرير. وَرِثَ جَدِّي العلبةَ من أبيه، وورثها أبوه عن جَدٍّ جَدِّي، وظلَّت بالنسبة لي سببًا من أسباب شقائي.

قـرَّر أخوالي إحالة جـدِّي للتقاعُد من دكان "المانيفاتورة". شارَفَ المحلُّ على الإفلاس، فجدي أصبح ينسى مَن باع ومَن اشترى ومَن دفع ومَن سرق؛ فكان القرار أن يلزم البيت الكبير، وتحديدًا الغرفة الصغيرة في الطابق الثالث المجاورة لغُرف الخزين.

"واطلعي يا حـلوة بالفـطار". أقفز سلالم الطوابق الثـلاثـة كل سُلَّمَتَيْن على خطوة واحـدة وأنا مُمْسِكَةٌ بصينيَّة الطعـام بِحَذَرٍ كالبهلوان في السيرك. أحيانًا ألتهم قُرْصَ طعمية من الثلاثة الساخنة التي تضعها نينة زكية فوق الرغيفين أثناء رحلة الصعود للطابق الأول، ثم القرص الثاني في الاستراحة القصيرة في الطابق الثاني، وأتطلَّع إلى النـافذة في الطابق الثالث ببراءة؛ بينما جِدِّي يكيل السباب لزوجته التي تنتقص كل يوم من فطوره. "واجري يا أُمُّورة بالغدا"، فأكرِّر الرحلة ذهابًا إيابًا، ولا عشاء لجدي حتى ينام خفيفًا دون كوابيس، ويصبح في اليوم التالي نظيفًا على فِراشٍ جافٍّ. لم أَكَدْ أفرح بقرار نينة زكية بإلغاء وجبة العشاء حتى بدأ جدِّي في زيادة جرعة النشوق التي يستنشقها كلَّ يوم. ينادي

عليَّ بعد صلاة المغرب. يزعق ويُصفِّق بيده فأجري صاعِدَةً إلى غرفته. يأخذ جدِّي بسبابته وإبهامه آخر قبسة نشوق ويُعطيني العلبة فارغة والنقود كي أذهب إلى محلِّ "عم شُرُش" البقَّال لأشتري له نشوقه. يعطس جدِّي بقوَّة، فتتطاير بقايا الطعام ويتطاير البصاق والمخاط على وجهي وملابسي إذا لم أتمكَّن في الوقت المناسب من تفادي عَطْسَتِه القويَّة التي لا تتناسب أبدًا مع جسده الواهن.

صعدتُ وقت الظهيرة في ذلك اليوم، وجدتُ جدِّي في الحمَّام البلدي المجاور لغرفته وحُقّ النشوق يقبع في انتظاري على المنضدة الصغيرة. أخذتُه بهدوء، وضعته في جيب بيجامتي الأيمن، هبطتُ الدَّرَجَ بنفس خِفَّة صعوده، أو ربما بِخِفَّةٍ أكثر هذه المرَّة.

في المساء تعالى الصياح الذي اخترق الطوابق الثلاثة ومزَّق طبلةَ أذني. صعدتُ إلى غرفة جـدي حيث مصدر الضجيج. وجدتُ نينة زكية تصرخ والغرفة لا تبين من ملابس جدِّي الملقاة من الدولاب والمخدَّات الواقعة على الأرض. أخـوالي يشيحون بأيـديـهم، وجـدِّي يبكي كالأطفال الصغار لضياع "حُـقّ النشـوق". احمرَّتْ عيـناهُ وغطَّت الرغاوي البيضاءُ فمَه وانحنى ظهره عمَّا كان عليه وقت الصباح. قبضتُ على علبة النشوق داخل جيبي الأيمن وقلتُ بهدوء شديد. "الصباح رباح يا جدي. يمكن... يمكن نلاقيها!" هبطتُ الـدرج ركضًا وشـعور الانـتصار والظَّفَر يسبقني إلى غرفتي.

أتفهَّم الآن شعورَ الفقد في كل خيمة من خيام الزعتري. أبكي مع الأُمَّهات الثَّكالى، ليس على ذويهم، لكنني أخيرًا بكيتُ أختَيَّ. ربما قد حان الوقت أن أحرِّر دموعي بعيدًا عن أمِّي وأقاربها وجيرانها وصاحباتها. أبكيهما في مكان ناءٍ، في مدينة يكسوها الغبارُ، تختلف فيها التفاصيل والملامح ويتشابه الفَقْدُ.

* * *

15

الـخطيـفـة

لا حول ولا قوة إلا بالله!

لم يَعُدْ باستطاعتي الانضمامُ إليهنَّ يوم الأربعاء منذ أن بدأنا الإعدادَ لعُرس "تاليا" ابنتي. ذهني يشرد طوال الوقت، ولا ألتفت لحكاياتهنَّ العاقلة والماجِنة والصَّاخبة والهازِئة من كل شيء. لا أعرف لماذا في البداية انضممت إليهنَّ، أبدو مختلفةً عنهنَّ في كل شيء، أُصَلِّي وأصوم، أُخرِج الزكاةَ وأرتدي الحجاب، أتمسَّك بتعليمات الجمعية الشركسية وما تفرضه علينا من تحديد لرسوم الزفاف والطلاق والشَّبْكَة والمَهْر. حين أكونُ وسطهنَّ

أطلبُ المياه الغازية في أغلب الأحيان، أو عصير التفاح إذا طلبن بيرة، وعصير الرمان إذا طلبن نبيذًا أحمر حتى لا أبدو من بعيد مختلفةً عنهنَّ. لكنني أحببتهنَّ جميعًا بلا استثناء، ولكن بدرجات متفاوتة. كِدْتُ لا أطيق الابتعادَ عنهنَّ، حتى تلك الوافدة الجديدة علينا التي تعمل في مُـخَيَّم الزعتري أحببتها. داخل كل واحدة شيء ما ينقصني، طالما تمنَّيْتُ أن أكونه وجَبُنْتُ، فاكتفيتُ بالإعجاب به بيني وبين نفسي، وإظهار الاستياء من نفس الشيء وذات التصرُّف علانيةً. شو بِيْعَرِّفْني، هيك رَبيْت في بيت أهلي.

أتساءل من الحين للحين "من أنا؟"

أنا أنتمي لنسل الشراكسة المسلمين الأوائل الذين تركوا ديارهم في منطقة "القفقاس" بعد الهجمات التي تعرَّضوا لها على أيدي جيوش روسيا القيصريَّة. بدأوا رحلة لجوئهم وشَتاتهم في مناطِقَ أخرى متاخِمَةٍ في آسيا الوسطى، والبعض استقرَّ به المقام في بلاد الإمبراطورية العثمانية التي رحَّبَت بهم لحاجتها إليهم في جيوشها ومزارعها. استوطن جدودي الأوائل من الشراكسة منطقةَ الأردن في البداية. زرعوا الأرض، وحموها ودافعوا عنها، وقَبِلُوا ببلدِ اللُّجوء وطنًا. ولَمَّا تغيَّرَت الأمورُ وجاء الآباءُ المؤَسِّسون للمملكة ككيانٍ سياسيٍّ رحَّبْنا بهم، وأَحْسَنَّا ضيافتهم، ثم تبدَّلَت الأدوارُ، وأصبح الوافِدُ مالكًا، والمالِكُ الأصليُّ تابِعًا، والجميع لاجئون على أرضهم أو أرض الغير. واعترافًا بالجميل وردًّا له حَرِصَ الملوكُ بعد

ذلك على أن يكون الحرس الملكيُّ دائمًا من بين الشراكسة. جئنا أسيادًا، وانتهى بنا الحال حُرَّاسًا! وأكلنا هوا.

وسط صديقاتي أشعرُ دومًا أنني أرفع منهنَّ مرتبةً، وحتى التي تحملُ من بينهن جوازَ سفرٍ أردنيًّا هي في الأصل فلسطينية، فليس بينهنَّ مَن تستطيع مثلي ومثل سائر الشركس التفاخُرَ بأرْدُنِيَّتِها أبًا عن جَدٍّ، وحتى تلك الوافدة الرابعة التي انضمَّت إلينا مؤخَّرًا؛ فهي مصريَّة، وإن كانت تحاول دومًا تفادى أي حوار بشأن الجنسية والهويَّة، وتُمازِحُنا بأنها من نَسْلِ آدم وحوَّاء: أوَّلِ لاجِئَيْن على وجه المعمورة. أنا وحدي من بينهنَّ جميعًا من الشراكسة اللاجئين الأصليِّين أصحاب الأرض!

أحببتُ بيتي الكبير، وحديقتي الأكبر التي تبدو كأنها الأصل والبيت لاجِئٌ أقام والتصق بها رغمًا عنها. زوجي صار بعد تقاعُدِه يعشق التلفاز أكثر ممَّا يعشقني، وها هي ابنتي الوحيدة "تاليا" اختارت حبيبًا، واتَّفَقَت معه على الزواج على طريقة "الخطيفة". لا أعرف مَنْ بإمكانه إقناعها بالعدول عن هذه الفكرة اللعينة، والتقليد السخيف الذي حاول الشراكسة الإبقاءَ عليه كهمزة وَصْلٍ بينهم وبين أسلافهم. فكَّرْتُ أن أستعين بأختي "سَتانيه"، لكنني عَدَلْتُ عن فكرتي؛ فقد زادت حالات اكتئابها بعد تَرَمُّلها، وأصبحت لا تبالي بما يدور حولها طالما أَمَّنْتُ لها أكوامًا من علب السجائر والخرز الذي تلضمه في عقودٍ لا تجد أعناقًا ترضى بها. اشتقتُ لمشورة أمِّي كما كنتُ أفعل دائمًا، ألـجأُ إليها فَتُمْلِي عليَّ الصوابَ واللائق والمناسب والأصول، ولكنها

الآن بعد أن تجاوز عمرُها الثمانين عَزَفَت عن كل أفراح الدنيا ومُتْعَتِها، ولم يتبقَّ لديها شيء سوى الرغبة المؤرِّقة لها والمُقْلِقَة لنا جميعًا في زيارة مسقط رأس أجدادها في مدينة "نالْتْشِك". المُضْحِكُ أن صديقاتي الثلاث، وحتى الوافدة الرابعة يُرِدْنَ الانضمامَ لنا في رحلتنا إذا قُدِّر لنا أن نقوم بها قبل أن يسبقنا القَدَرُ ويأخذ أمي. مسكينة أمي. أكل السَّرطانُ بعضَ أجزاء جسدها جزءًا تلو الآخر: الثدي الأيمن أوَّلًا، ثم الأيسر، وبعدهما الغدد الليمفاوية، فالرحم وجزء من الكبد، والآن بدأ يزور العظام بتؤدَةٍ.

أنهضُ كلَّ صباح، أذهبُ إلى حجرة أمِّي، أرفعها بحرصٍ من على السرير، وأبدأ في نَزْعِ الحفَّاضة ومَسْحِ مُؤَخِّرَتها. كانت أمي تبكي بصوت مسموعٍ يُبكيني معها بصوت خفيض، بينما تتبرَّم سَتانيه خارجَ الحجرة وهي تدخِّن سجائرها.

تقول لي سَتانيه أثناء محاولاتها المستمرَّة لإقناعي بالاستعانة بممرِّضَةٍ للاعتناء بأمِّي وتَوَلِّي إطعامها وتنظيفها: "من الطبيعي أن تمسحَ الأمُّ مؤخِّرَةَ طفلها، وتُنَظِّفَ قَيْئَه وترفع فضلاتِه بنفسٍ راضية وعن طيب خاطر، لكن ليس من الطبيعي أن تكون الأمُّ في مكانِ الطفل، وتكون الابنة في موقع الأم". (شو بيعرِّفْني؟) أردُّ عليها وأواصل تنظيف أمي. سَتانيه لم تُرْزَقْ بأطفال حتى تعرف هذه المشاعر، وتوقن أن هذا البكاء ليس سوى ابتزازٍ عاطفيٍّ من أمٍّ خَرِفَةٍ حافظت على تقاليدَ باليَةٍ لم تجلب لبنتَيْها سوى التعاسة. يبدو أن سَتانيه لم تسامِحْ أمي منذ أن رفضتْ تزويجها عربيًّا، فالشَّرْكَسُ

يحافظون على نقاء دمهم وصفاء سُلالَتِهم بالتَّزاوُجِ فيما بينهم، ومن ثَمَّ تزوَّجَت سَتانيه من شركسيٍّ يقضي نهارَه في العمل وأمسياتِه في الجمعية الشركسية، ويجلس أمام التلفاز لا يُغْلِقُه، وبعد أن يغلبه التَّعَبُ والسهر ينام على الأريكة الموجودة في مدخل البيت إلى أن تأتي سَتانيه وتطفئ الجهاز. لم تعرف الحبَّ مرَّةً أخرى بعد شَغَفِها بحبيبها العربي، ولم تنفع عِشْرَةُ تِسْعِ سنوات في جَعْلِها تتقبَّل حياتها، ولم تُرْزَقْ بأيِّ أبناء من تلك الزيجة، ولم تسامح أُمَّنا.

أصبحتُ المسؤولةَ عن أمِّي وطلباتها، تحمَّلْتُ بعد وفاة والدي نَوْباتِها وعنادَها ونَزَقَها دون تَبَرُّم. ظَلَلْتُ الابْنَةَ المطيعة الطَّيِّعَةَ في يَدِها. توصَّلْتُ لنظريَّةٍ حياتيَّةٍ وبِتُّ أُطَبِّقُها على القريب والبعيد والأهل والأصحاب. أرى أن الإنسان مع تَقَدُّمِ العمر يتحوَّل من شخصية عادية إلى شخصية كاريكاتيرية، تتَّضِح عيوبه وتبرز في الكِبَرِ، مهما حاول وجاهد لتهذيبها أو إخفائِها طوال حياته. التَّقَدُّمُ في العمر يجعلنا نتخلَّى عن الـحُلَّة المخمليَّة التي نتجمَّل بها، كسبنا ما كسبنا، وفقدنا مَن فقدنا، فلم يَعُدْ هناك ما نحاول كَسْبَهُ، أو نتجنَّب فقدانه. وافقت أمي على زوجي الشركسي بعد أن رتَّبَت هذه الزيجة "الموفَّقة" مع إحدى قريباتنا. ولَمَّا تعبتْ وتدهورتْ صحتها وبدأت أعراض الزهايمر تداهمها أحيانًا، أو تستدعيها عمدًا مرَّاتٍ لإملاء أَمْرٍ أو فرض شرط – انتقلتْ للعيش معي، وبذلك اجتمع شَمْلُ الأسرة مرَّةً أخرى بعد سنواتٍ تفرَّقَت فيها الطرق، وعادت الأسرة لتجتمع تحت سقف واحد بأمزجةٍ مختلفة ومرارة واحدة.

كانت مشكلتنا الكبرى هي الاعتناء بها بعد أن باتت شِبْهَ قعيدةٍ. لا تفعل أي شيء سوى الجلوس أمام التلفاز ومشاهدة الأفلام المصرية بالأبيض والأسود من حقبة الخمسينيات والستينيات، تَبْرَعُ في ذِكْرِ بعض الاقتباسات والـجُمَلِ، وإن كانت تقولها دائمًا في غير محلِّها؛ فيضجُّ الجميع بالضحك، وسط دهشتها، وتقريعهم. باتت تحتاج لمن يُجْلِسُها على السرير لإطعامها، ورَفْعِهَا من السرير للمقعد المتحرِّك للذهاب لدورة المياه لقضاء الحاجة في النهار أو الاستحمام، وتغيير الحفَّاضات كلَّ يومٍ صباحًا، ومسح مؤخِّرتها.

كنت أنا دون غيري مَن تولَّى هذه المهام. ولَمَّا طلبتُ مرَّةً من أخي أن يساعد قدر طاقته في تحمُّل مسؤولية أمي، ولو باصطحابها لزيارات الأطباء، أو حتى زيارتها مرَّةً أسبوعيًّا للعب الطاولة معها وتمضية بعض الوقت كي أستريح لسويعاتٍ قليلة، وأخرج للحديقة لتدخين سيجارة؛ ردَّد المقولة المشهورة: (الولد للكفن، والبنت للعفن). كنت أصمتُ ولا أجادل؛ مَن "تَتَمْسَحَ" جِلْدُهُ وغلظُ قلبه وبهتت مشاعره، فلا سبيل للجدال أو المنطق معه. كنت أخدم أمي وأطعمها وأنظفها وأستمع لشكواها وحكاياتها التي تُكَرِّرها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ دون كَلَلٍ. أتحمَّل توبيخها وأدعو لها بطول العمر. هذه الدعوة التي طالما أثارت غضب سَتانيه "ما فائدة طول العمر إذا كانت تدير لنا مؤخِّرتها كي نمسح خراها؟" تقول لي، وأستغفر ربي لي ولها، وأتمنَّى ألَّا تكون أمِّي مستيقظةً وفي حالةٍ تسمح لها بِفَهْمِ هذه الكلمات القاسية.

اليوم هو موعد زفاف تاليا التي أصرَّت أن يكون زواجها "خطيفة"، تلعب وتمرح وينخلع قلبي. هَلَّلَت صديقاتي، بل تحمَّسْنَ وكأنَّهُنَّ مُقْبِلاتٌ على مُشاهَدَةِ إحدى ألعاب السيرك المُسَلِّيَة، تمامًا كما تَحَمَّسْنَ للانضمام لعائلتنا في رحلتنا المُرْتَقَبَةِ لبلاد القفقاس.

تريد أن تتزوَّج خطيفةً وتَحْرِمَني من حضور عقد قرانها. أيُّ ابنةٍ عاقَّةٍ هي؟ كيف تجحد بأمِّها، وأنا البارَّة دائمًا بأمي؟ منذ أن أفصحَت عن نِيَّتِها تلاشت كلُّ حواسِّي. لم يَعُدْ لي سوى أذنين، أجتهد كي أسمع كلَّ دَبَّةِ نملةٍ، وبِتُّ أتخيَّل أن كل صفقة باب، أو مكابح سيَّارة خارج المنزل هي بداية الطلقات الثلاثة التي تعلن عن اختطاف العروس وذهابها إلى بيت أحد وُجَهاءِ الشركس الذي يستضيف العروس حتى موعد ذهابها لبيت زوجها؛ فيذهب الفرحُ لآخرين لا ناقةَ لهم فيه ولا جمل وأبقى هنا أمسح خراء أمي.

* * *

16
النَّـاقَـةُ

متى تنتهي مهمتي؟ أسأل نفسي كل يوم. ما زلتُ أنام بصعوبَةٍ، وأستيقظ بصعوبةٍ في هذه المدينة، أمارسُ حياتي وعملي بمَشقَةٍ بالغة لا تتناقَصُ بمرور الأيام. أتوقُ كثيرًا لعودتي لبيتي في القاهرة، وأخشى العودةَ في نفس الوقت. وبينما أصارعُ مخاوفي المتكرِّرَةَ الـمُعادَة، دقَّ هاتِفُ حجرتي بعد ساعاتٍ من منتصف الليل. رفعتُ رأسي وانتظرتُ ثواني حتى يتبدَّدَ النعاس وأتعوَّدَ على ظلام الحجرة. لا بُدَّ أن أحدًّا قد أخطأ إدارة الرقم، أو ربَّما جارتي في الغرفة المجاورة شعرتْ بالظمأ بعد ليلة أمس وما صاحبها من مجهودٍ بدنيٍّ

وصوتيٍّ اخترق جدران الحجرة وقفصي الصدري وأشعرني أنني أستمعُ لفيلم بورنو أثناء صناعته. ربما أدارتْ رقم خدمة الغرف لطلب زجاجة نبيذ أو شمبانيا تطفئُ ظمأَها، فأخطأَت وأدارَت رقم حجرتي. أسندتُ رأسي قليلًا على المخدَّة ورفعتُ سمَّاعة الهاتف.

جاءني صوت المُهْرَة يخلو من مَرَحِها المعتاد بصورة أقلقَتْنِي؛ بَدَتْ غريبةً في رصانتها التي لم نتعوَّد عليها في لقاءاتنا العديدة. بعد السلام المُقْتَضَبِ والاعتذار عن الاتِّصال في هذا الوقت المتأخِّر صمتت ثواني، ثم أوضحت أنها عادت لِتَوِّها من عند صديقتنا الناقة وأنها لم ترغب في النوم قبل الانتهاء من جميع الاتصالات وتنظيم الأمور. صمتت ثواني أخرى وأضافت أن سالم زوج الناقة قد تُوُفِّي، وأن العزاء غدًا في بيتها.

الصمتُ وحده يلازمني حين يجدرُ بي الكلام. أفتِّشُ عن جملةٍ مفيدة، أو ربما غير مفيدة، أو بضع كلمات منفردة لا يربط بينها رابط أو منطق، ولا تقف وراءها قناعَةٌ محدَّدَة فلا أجد. ألتزمُ الصمتَ، والصمت فقط، وأصرُّ عليه. فهمتْ المُهْرَة فأضافت:

"لا تلبسي أسود ولا أي لبس داكن. بِتِعرَفي..."

لم توضِّح لي وصَمَتَتْ مرَّةً أخرى. ما الذي أعرفه فيجعلني أعدلُ عن ارتداء الأسود في زيارة عزاء في زوج صديقة باتت من الأقرب لي في غُرْبَتي؟

"بيكون لطيف لو أحضرتي صحن حلو مَعِكْ بكرة. قَسمِّنا المشتريات: أنا رَحْ اجيب التمر، ودبِّرنا أمر العصير والمُعجَّنات وناقصنا الحلو. بِتعرفي... مَنَّا تقليديين، ما بنريد عَزَا مِتِل كِلّ عَزَا. بِدْنا شي مِخْتِلِف!"

"آسفة لسماع هذا الخبر"

ردت بحياد أنه لا داعي للأسف، فقد كان الأمرُ محتومًا ومتوقعًا منذ الشهر الماضي، ثم أضافت: "أعتقد أن الوفاة تأخرت قليلاً". قالتها بضحكتها المألوفة، وقد عادت لها طبيعتها التي خذلتها لدقائق معدودات.

"إصْحِك تتأخَّري. ممكن أَمُرّ عليكي، أو أبعت لك السائق. بون نوي".

بدا المشهد كله عبثيًّا بالنسبة لي. أتوقَّعُ صوت جارتي اللاهية فيأتيني صوت المُهْرَة متجهِّمًا غريبًا. مات سالم بعد توقُّفِ قلبه الحنون بانسداد في الشرايين، ولم يَمُتْ طوال نضاله داخل المنظَّمة. لم يَمُتْ في بيروت عندما انضمَّ للحركة الطليعيَّة وكانت الحرب الأهلية على أَشُدِّها. لم يَمُتْ في تونس وقت أن أَوْصَدَتْ القاهرةُ أبوابَها في وجوههم. لم يَمُتْ في رام الله في بيته الذي اشتراه وسدَّد أمواله بالتقسيط المُرْهِقِ من ماله ومال زوجته الذي حصلت عليه من أهلها رغم استيائهم لزواج ابنتهم المسيحية من مسلم، أو كما كان يتمنَّى وسط زيتونته وكرمته ورائحة الخليل. مات على سرير بارد، في مستشفى بارد، فوق جبل عَمَّان البارد، والعزاء غدًا بحلوى وبلا ملابس سوداء أو داكنة!

لا أعرف متى استغرقتُ في النوم مرة ثانية بعد المكالمة. أفقتُ بصداع رهيب لم يبدِّدْه الحمَّامُ الدافئ أو أكواب النسكافيه الأربعة التي عبَبْتُها على الريق بلا حليب أو سكر. اتَّصَلْتُ بالدكتور فولك لأعتذر عن ذهابي معه وألما في الصباح، وبأنَّني سأنضمُّ إليهما لاحقًا في المخيَّم لِظَرْفٍ طارئ. فتحتُ خزانة ملابسي ونظرتُ في كل القطع الموجودة. مُشْكِلَةٌ صغيرة أمامي؛ معظم ملابسي سوداء أو زرقاء أو رمادية، وعلى الطرف الآخر من طيف الألوان -بعيدًا عن المُشْتَقَّات والظلال والدرجات- وجدتُ فستانًا أحمر وبلوزةً بيضاء. تَذَكَّرْتُ صديقتي المُسِنَّة التي أكَّدتْ لي يومًا ونحن نتسوَّقُ معًا في باريس عندما وجدتني لا ألتفت سوى للملابس الداكنة: "انتظري حتى تبلغي الستين، ستبدئين في اختيار الملابس الفاقعة، وستعرف خِزانَتُكِ الأخضرَ الزَّرْعِيَّ والبرتقاليَّ والأصفر الليموني والفوسفوري". انفجرتُ ضاحكةً وقتها وأنا أتخيَّل نفسي مرتديةً هذه الألوانَ التي تُذَكِّرني بلباس مُهَرِّجي السيرك. كانت زميلتي وصديقتي التي تجاوَزَ عمرُها السِّتِّين ترى أن الفتياتِ والشابَّاتِ في عمر العشرين والثلاثين لا يَحْتَجْنَ لألوانٍ زاهية تُضفي عليهنَّ بريقًا أو نضارة؛ شبابُهُنَّ يكفي ويزيد، لكن بعد الستين تتغيَّر الخيارات، وتتبدَّل الحسابات، ويبْدَأْنَ في التَّشَبُّثِ بمباهج الحياة، حتى لو كانت مُتَنَكِّرَةً في ألوان!

حسمتُ خيارًا مفروضًا: البلوزة البيضاء الفضفاضَة، والبنطلون الرمادي، وحزام الخَصْر الأسود العريض.

جاء السائق في العاشرة صباحًا. صعدتُ معه وجلستُ إلى جواره بعد أن لامتني المُهْرَةُ في المرة الأولى التي أقلَّني فيها عقب شكواه مني لأنني جلست في المقعد الخلفي في إشارة واضحة لإحساسي بأنه أدنى مَرْتَبَةً منِّي. استمعتُ منها يومها لمحاضرةٍ أَسْهَبَتْ فيها في الحديثِ عن عُنْصُرِيَّتي وأشكال "الاستريوتايب" المتعدِّدة التي كوَّنْتُها دون وجه حق إزاء بعض الجنسيات والوظائف والأعمال. قالت لي بعد جملة اعتراضية -من غير أي حساسيَّات- إنهم يُلَقِّبون أصحاب الوظائف الدنيا بـ"المصري"، فلا داعي إذن لأسباب برجوازية بَحْتَةٍ وتَنْشِئَةٍ خاطئة أن أُسْقِطَ عُقَدي وتخلُّفي على الآخرين. فتحتُ الباب المجاور للسائق وكلمات المُهْرَة تطنُّ في أذني كما تطنُّ دومًا كذبابةٍ لَحُوحٍ كلَّما أشرت لسيارة أجرة. جلستُ بجواره وطلبتُ منه أن يأخذني إلى بيت صديقتي بعد أن نَمُرَّ أوَّلًا على محل إخوان زلاطيمو للحلويات.

وقفتُ أمام فاترينة الحلويات مترددَةً. لا داعي لكنافة العثمانليَّة بالطبع. مجرَّد النظر إليها وهي خارجة للتوِّ بنارها ولهيبها من الفرن -بلونها البُنِّيِّ المائل للحُمْرَةِ وصوت القِشْدَةِ التي تذوب بمجرد لَمْسِ سطحها الساخن وشراب السُّكَّر المعقود الموضوع في الإناء المجاور- يبعث على البهجة، لا عثمانليَّة إذن، ولا دوائِرَ عُشِّ البلبل الصغيرة المحشوَّة بالفستق والكاجو، ولا بقلاوة تفوح منها رائحة الزبد البلدي ويَجْثُمُ على سطحها مَبْشورُ الفستق الذي يحيل لونها للأخضر السعيد.

"أريد حلوى تصلح لتقديمها في عـزاء!" سألتُ البائِعَ أمام حيرتي متمنِّيَةً ألَّا يتَّهِمَني بالتَّهَكُّم أو الجنون.

اتَّجه البائعُ بلا تَرَدُّدٍ أو مُباغَتَةٍ من السؤال إلى الرُّكْنِ الآخر من الفاترينة، وانتقى علبة بيتي فور وعلبة بَرَازِق بالسمسم. يبدو أن طلبي لم يكن مُستَهْجَنًا لدى البائع الذي لا شكَّ أنه يَرِدُ عليه أشكالٌ وألوان من الزبائن. شكرتُه ودفعت الحساب وتوجَّهْتُ للمقعد المجاور لسائق المُهْرَة.

حين صعدتُ إلى شقة الناقة كانت آلام الصداع قد بدأت تهدأ. أول ما قابلني كان صوت موسيقى كلاسيكية تنبعث من بعيد. لأول مـرة أفشل في تحديد مؤلِّفها؛ فعادةً أعرف من أسلوب الهارموني أيَّ مُؤَلِّفٍ تنتمي إليه هذه المقطوعة أو تلك، حتى ولو لم أكن أعرف اسمها تحديدًا. تغاضيتُ عن فشلي وإن ساورني القلقُ؛ خَشْيَةَ أن أكون قد بدأتُ مرحلةً جديدة تشبه تلك التي حَكَتْ عنها الشركسية في إحدى أمسيات الأربعاء عن والدتها وأعـراض الزهايمر الـمُبَكِّرِ. ربمـا كان اللِّبْسُ قد حدث من تداخُل الموسيقى الكلاسيكية مع صوت المُقْرِئِ وترتيله لسورة الرحمن الذي انبعث في ذات الوقت من غرفة أخرى من غرف البيت.

كان "چهاد" ابن الناقة الذي حضر من أستراليا لدفن والده أوَّلَ مَن قابلني. شابٌّ في أوائل الثلاثينات، يرتدي سوارًا جلديًّا في معصمه ويضع قرطًا ماسيًّا صغيرًا في حلمة أذنه اليسرى. في أوقات أخرى، وفي ظروف أخرى سابقة قبل أن ألتقي بالنساء الأربع لَكُنْتُ أَمْعَنْتُ في ملامحه وملابسه

ولفتاته وطريقة مشيته كي أعرف ما إذا كان مِثْلِيَّ الميول الجنسية أم لا. الآن بعد أن اقتحمتُ حياتَهُنَّ -أو ربَّما اقتحمن حياتي- لا يهمُّني أن أعرف حقًّا، حتى لو كان مِثْلِيًّا، مرحبًا بالاختلاف والحرية!

حَضَنَني چهاد بترحاب كما لو كان يعرفني منذ زمن، وبابتسامة عريضة لا تتناسب مع مناسبة عزاء والده بعد أن قدَّمَتْني المُهْرَةُ له. قال لي وهو يقترب من أذني: "مرحبًا بالـمُتَلَصِّصَةِ على جلسات أمي وصديقاتها!" وغمز لي بعينه اليمنى، وأضاف: "By the way هذا هو الاسم الحركي اللي عطوكي إيَّاه الصبايا قبل ما تتعرَّفوا على بعض"، ثم أكمل: "The bloody Palestinians بيحبُّو يعطو اسم حركي لكل شخص كأنُّو النضال بيبدي بهالأسما المضحكة". ارتبكتُ قليلًا قبل أن تُبَدِّدَ ضحكة المُهْرَة ارتباكي. احتضنتُ الناقة وأنا أحاول أن أكتم دموعًا صادِقَةً تقف على أهبَّةِ الانفجار، فنظرتْ لي مُؤَنِّبَةً، وضغطتْ بشدَّة على كتفي. أخذتني من يدي وأجلستني أوَّلًا بجوار والدة المُهْرَة، ثم بدا عليها التردُّد. تَلَفَّتَت في الاتجاهين ثم اختارت الناحية اليمنى وأشارت للعنزة أن تأتي، وأخذتنا كي نجلس بجوار أمينة أخت سالم. انحنتْ عليَّ العنزةُ وقالت: "حاولي تسترجعي تخاريف بلدك الوهابية إذا بِدِّك مع أخوات سالم". ثم أضافت مُوَجِّهَةً الحديث لي قبل تنهيدةٍ هادئة: "ساعتين وبيخلص المولد على قولتكم يا مصريين، ونحتفل بسالم مِتِل ما بيستحق، ومِتِل ما بيحب يكون عزاه".

انتقلتُ أنا والعنـزة كما حدَّدَتْ لنا الناقة، بينما ظلَّت المُهْرَة الدينامو الذي يُضْفِي بهجةً على كل شيء، وفي كل مناسبة، حتى لو كانت عزاءً. تتنقَّل بين الـمُعَزِّين عِدَّةَ مرَّات، في الناحية اليمنى أهل سالم الذين أتوا من رام الله وأريحا وعمَّان، وهم يرتدون السواد، جلستْ مُعْظَمُهُنَّ يقرأن في أجزاء القرآن المتفرِّقة وأدعية للرحمة والمغفرة للمُتَوَفَّى بعد أن خَفَضْنَ صوت المقرئ القادم من المُسَجِّل، تطبطب على إحداهنَّ، وتناول المياه أو القهوة للأخرى، وتَضَعُ المَحارِمَ الورقيَّةَ أمامهنَّ لِمَسْحِ الدموع السَّخِيَّة التي جُدْنَ بها. تفتح حوارًا بين اثنتين صامتتين وتتركهما لاستكماله معًا، ثم تنتقل إلى الجانب الآخر من البيت حيث أصدقاء وصديقات الزَّوْجَيْن من المسلمين بالميـلاد، المُلْحِدِين والفنَّانيـن ورُفَقاءِ النِّضال. تضع التمر والبيتي فـور وأقراص البـرازق في أطباق صغيرة تُوَزِّعها على الجالسين والجالسات. تَصُبُّ العصيـر لمن يرغب دون أن يغادِرَها حضورُهـا أو تغادرها ابتسامتها.

بعد نحو ثلاث ساعات تقريبًا بـدأت الصـالة تتخلصُ تدريـجيًّا من مُحْتَلِّيها، وخاصة في الناحية اليمنى التي يجلس فيها أهل سالم، فأغلقت المُهْرَةُ المُسَجِّلَ قبل أن تنتهي السورة القرآنية. استطعتُ للمرة الأولى أن أُمعنَ النظرَ في اللوحات الـمُعَلَّقَةِ على الجدران، والمفارش المشغولة يدويًّا بالخيوط الحمراء المُمَيَّزة لأهالي رام الله. ها هي لاجِئَةٌ بكامل إرادتها، تركت بغداد قبل أن تبلغ العامين حيث وُلِدَتْ لأبوين من المسيحيين السِّرْيان،

أي أقلِّيَّة من أقلِّيَّة، ضاق بهما الحال وقت القمع البعثي، استقرَّا في سوريا بعد أن هجرا العمل السياسي، وفي سنوات المراهقة اتَّجَهَت العائلةُ للمجر لاستكمال دراسة وحيدتهم حيث قابلت سالم: فلسطينيٌّ مسلمٌ، وعاشا سويًّا كزَوْجَيْن، دون عقد زواج رسميٍّ لمدَّة ثلاث سنوات، إلى أن جاء چهاد للدنيا، فحرَّرا الورقة الرسمية لتسجيل ابنهما. جابا البلادَ شرقًا وغربًا، وأقاما فترةً لا بأس بها بلبنان، إلى أن استقرَّ بهما الحال مُتَرَدِّدين بين الأردن، لسهولة العمل، ورام الله؛ حيث وطن سالم. الناقة عراقيَّةُ المولد، سورية الإقامة، لبنانية التعليم، مَجَرِيَّةُ الفِكْر، وفلسطينيَّة الهوى! على النقيض من ألما الفلسطينية التي أخفت جنسيَّتَها عن رُفَقائِها خجلًا! الوقت ليس مناسبًا بالمرَّة لمثل هذه الأفكار المُرْبِكَة. انْفَضَّ الجَمْعُ، ولم يَتَبَقَّ سوى النساء الأربع، وچهاد، وبعض الأصدقاء المُقَرَّبين للناقة وزوجها المُتوفَّى، وأنا، الصديقة المتلصِّصَة.

خلعتْ الناقةُ حذاءَها ونظرت ناحية العنزة والمُهْرَة متجاهِلَةً الشركسيَّةَ، ربما لأنها تعرف أنها لا تصلح للمَهَمَّة المُقْبِلَة وقالت: "واحدة تِحضِر قنينة الفودكا من البرَّاد والكاسات من المطبخ؛ بكرة حفل التأبين. بدِّي بعض الأبيات أنهي فيها كلمتي وما في عندي تركيز شو باختار". علا صوت الشركسية فجأة، ربما كانت المرة الأولى التي تنطق فيها منذ مجيئها العزاء: "حَضِّروا حالْكُنْ، بنسافر كِلِّياتْنا على نالْتْشِك بعد الدَّفْن والتأبين". سَرَتْ موجة نشاط مباغتة، وأكَّد الجميع على كلامها: "إيه إيه هي نالْتْشِك للراحة والاستچمام".

وجَّهَت العنزة كلامها لچهاد مُقَلِّدَةً لهجته:

"تبقى هون وتروح معانا على نالْتْشِك!"

ردَّ عليها:

"ليش لأ؟ باروح ع نالْتْشِك. فيه مُزَز؟"

احتدَّت الشركسية عليه:

"بنات العيلة ما بيتزوَّچوا غير شركس"

قهقه چهاد:

"ومين ذكر سيرة الزواچ!"

اندفعت المُهْرَة وخبطت على كتفه:

"ألحس طيزي لو اتزوچت في حياتك"

أومأ چهاد موافقًا ومؤيِّدًا كلامَها.

رددتُ عليها:

"ما بتفكريش غير بنصك التحتاني"

"تمام حبيبتي. كل العرب ما بيفكروا غير بِنُصْهم التحتاني. إچت عليَّ انا بس؟"

ضجَّ الجميع بالضحك، وكأننا لسنا في موقف عزاء يستدعي الوقارَ والصَّمْتَ!

تركَتْهُم الناقة يحاولون المساعدة، بينما شدَّتني من يدي واتَّجَهَت ناحية غرفةٍ في آخر الممرِّ. سِرْتُ معها كطفلةٍ صغيرةٍ مسلوبة الإرادة وهي تضغط على كفِّي بقوَّة. اتَّجَهَتْ ناحية الدولاب الموجود على الجانب الأيمن من الغرفة، فَتَحَتْ إحدى الضُلَف، وأخرجتْ حقيبةَ أوراقٍ، ثم مَدَّت يدها وأخذت مظروفًا مُرَبَّعًا أخضرَ مكتوبٌ عليه "مستشفى الحسين، وحدة أمراض القلب. عملية قسطرة علاجية وتثبيت دعامات". قصدتْ الناقة وأنا أتبعها مُرْتَبِكَةً جهاز الحاسوب الشخصي، ودَسَّتْ قُرْصًا مُدْمَجًا كان بداخل المظروف ووضعته في الجهاز. أضاءت الشاشة، فرأيتُ في الخلفيَّة شجرةَ زيتون خضراء وارِفَةً، تقف وحيدةً أمام الجدار العازل الرمادي الذي شَيَّدَتْهُ قوَّاتُ الاحتلال، بينما امتدَّت أَفْرُعُ الشجرة محاوِلَةً اختراقَ الجدار، ومُحْدِثَةً شروخًا رفيعة على جانبه، ويتدلَّى من أَفْرُعِها حبَّاتُ زيتونٍ حمراء قانِيَةٌ، مُتَّخِذَةً شكلَ قطرات الدِّماء!

دار القرص المُدْمَجُ فإذا بقلبٍ ينبضُ بوهَنٍ. ارتدَت الناقةُ نظَّارَتَها الطبيَّةَ، ووضَعَت يدها بهدوء على فأرة الحاسوب، وبدأت تشير للشُّعَيْراتِ الدَّقيقة المُتَّصِلَةِ بقلب سالم؛ كانت الشعيراتُ باهِتةَ الألوان في البداية، تُشْبِهُ الشُّروخَ الرفيعة التي أَحْدَثَتْها أَفْرُعُ شجرةِ الزيتون في الجدار العازِل، ثم أخذت الصِّبْغَةُ الدوائيَّةُ تسري بداخلها فيتحوَّل لَوْنُها تدريجيًّا لِلَونٍ داكِنٍ. أشارت

الناقة لجزء مُعْتِمٍ تمامًا في الشريان الأمامي الرئيسي الذي يُغَذِّي عضلة القلب وقالت: "هاي المستوطنة الأولى!" أخذتْ تُحَرِّكُ يدها بِخِفَّةٍ وسرعة تجاه التَّجَلُّطاتِ الموجودة داخل الشرايين، وتُسَمِّي كُلًّا منها باسم مستوطنةٍ من المستوطنات التي شيَّدَتْها قوَّاتُ الاحتلال حول المدن الفلسطينية حتى عَزَلَتْها بأكملها عن بعضها، وباتت كَجُزُرٍ مُنْعَزِلَةٍ. كانت تتنفَّس بصعوبة، ونبضات قلب سالم آخِذَةٌ في الخفوت، ومع اتِّساع زاوية الكاميرا اكتملت صورة القلب، وقد بات حبيسًا تمامًا وسط شُعَيْراتٍ دقيقة سُدَّ بعضُها بشكل كامل، وسُدَّ البعض الآخر بمناطِقَ داكِنَةٍ في أجزاء متفرِّقَةٍ مَنَعَتْ سريانَ الدم ووصولَه للقلب. ثبَّتَت الناقةُ الصورةَ على خارطة القلب الذي انتفض بقوَّةٍ عدَّةَ مرَّاتٍ، وسمعنا صوت الأطباء يغمغمون بكلمات سريعة متفرِّقة: (إنعاش. إفاقة. صدمات كهربائية). اهتزَّت الصورة مرَّات، ثم غابت واختفت. أخرجت الناقةُ القُرْصَ من الحاسوب فأطلَّتْ شجرة الزيتون من جديد في خلفيَّة الشاشة، وقد بدتْ هذه المرة أعلى من جدار العزل وأشدَّ بأسًا. احتضنتُها بقوَّةٍ فدسَّت وجهها في كتفي وهي تبكي محاوِلَةً أن تَكْتُمَ صوت نحيبها المُتَحَشْرِج. خَلَعَتْ نظَّارتها بهدوء، مسحت دموعها، وضعت القُرْصَ في المظروف الأخضر، عاد لوجهها قسماتُه الجامدة، قبضتْ على كفِّي بنفس القوَّة، وقادتني لخارج الغرفة حيث النساء الثلاث وجهاد، ومحاولة البحث عن أبيات للتأبين.

كانت العنزة واقفةً أمام المكتبة تتفرَّس عناوينَ الكتب، ثم مدَّتْ يدها

وأخذت ديوان "جداريَّة" لمحمود درويش، بينما ذهبت المُهْرَة وچهاد إلى المطبخ، وعادت تحمل زجاجة فودكا؛ الشراب المُفَضَّل لسالم، والتي تركها في الفريزر إلى أن يخرج من المستشفى ويحتفل مع أصدقائه بشفائه بعد تغيير شرايين قلبه التالِفَة. لم أَكُنْ أعرف قبل ذلك المساءِ أنَّ الفودكا لا تتجمَّد إذا وُضِعَتْ في الفريزر! بينما حمل چهاد صينيَّة خشب مُبَطَّنَة من الداخل بقطع سيراميك زرقاء عليها أكواب صغيرة وإناء به مُكَعَّباتُ ثَلْجٍ وطبق صغير به مكسرات متنوِّعة وآخر به فشار.

قَلَبَّتْ العنزة بين صفحات الكتاب تزاحمها المُهْرَةُ النَّظرَ، ثم صفقت بيديها قائلة: "إيريكا إيريكا".

خبطتها المُهْرَة على كتفها مُرَدِّدَةً: "شو وچدتي؟ هاتِ ما عندك يا أرشيميدس".

ارْتَدَت العنزة نظَّارتها الطبية. عدلت من وقفتها. صمتت بُرْهَةً ثم ردَّدَت في خشوع بعينَيْن شبه مُغْمَضَتَيْن:

"مَنْ أنا يا أَنْتَ؟

كَوِّنِّي كما كَوَّنْتُكَ،

ادْهِنِّي بِزَيْتِ اللَّوْزِ، كَلِّلْنِي بِتَاجِ الأَرْزِ.

واحْمِلْنِي مِنَ الوَادِي إِلَى أَبَدِيّةٍ بَيْضَاءَ.

عَلِّمْنِي الحَيَاةَ عَلَى طَرِيقَتِكَ،

اخْتَبِرْنِي ذَرَّةً فِي العَالَمِ العُلْوِيِّ.

ساعِدْنِي عَلَى ضَجَرِ الخُلُودِ، وكُنْ

رَحِيمًا حِينَ تَجْرَحُنِي وَتَبْزُغُ مِنْ

شَرَايِينِي الوُرُودُ..."

صَمَتَ الجميعُ، واتَّجَهَتْ أنظارُنا نحو النَّاقة. اتَّسَعَت حَدَقَتا العنزة وهي مُتَطَلِّعَةٌ لنا كما لو كانت مُدَانًا بانتظار حُكْمِ الإعدام أو التبرئة من لسان القاضي، أو تلميذًا بانتظار نتيجة اختباره، فالعنزة أستاذةٌ جامعيَّةٌ تتحرَّج من تسفيه اختياراتها. تَحَرَّكَت الناقةُ بِبُطْءٍ. فَتَحَت زجاجةَ الفودكا، ملأت الأكواب الصغيرة ومرَّرَها جهاد علينا، باستثناء الشركسية، ومَزَجَ كوبي ببعض عصير البرتقال.

رفعت الناقةُ كوبَها أوَّلًا، فرفعنا أكوابنا بعدها.

لأول مرَّة، رأيت لمعانًا في عينيها. بصوت خافِتٍ خَلَا من قوَّتها المعهودة قالت:

"مَنْ أنا يا أَنْتَ؟

. . .

سَاعِدْنِي عَلَى ضَجَرِ الخُلُودِ، وَكُنْ
رَحِيمًا حِينَ تَجْرَحُنِي وَتَبْزُغُ مِنْ
شَرَايِينِي الوُرُود...

في صِحَّةِ سالم".

* * *

17

الـمُـهْرَة

كلُّ الطُّرُق تؤدِّي لجهنم: سُمُّ الفئران، الزَّرنيخ الأخضر الفيروزي، الأقراص المُهَدِّئَة والـمُنَوِّمَة والـمُنَشِّطَة، بشرط تناوُل الجَرْعَة الصحيحة، نَصْلُ السكِّين الحاد، شفرة الحلاقة ماركة چيليت، مسدَّس البريتَّا عيار 9 مِلِّي، والأكثر فَتْكًا من كل هذا وذاك عَدَمُ مُمارَسة الجنس بقدرٍ كافٍ مُشْبِعٍ ومُطَمْئِنٍ وشافٍ للجسد والروح.

لم أرغب أبـدًا أن أكـون لاهيَةً عابِثَةً مُسْتَهِينَةً بكلِّ شيء وأي شيء، لكني أبـدو هكذا أمام الجميع. نِكاتي الفاضِحَة، ملابسي التي تُظْهِرُ أكثرَ

ممَّا تستر، ضحكتي العالية المُجَلْجِلَة اللافتة للأنظار- كلُّها سِتارٌ أو دِثارٌ أختفي خلفه حين يشتدُّ بي الشوق. وَدَدْتُ فقط أن أنـال قـدرًا كافيًا من الحميميَّة والدفء والشَّبع، فهل هذا كثير؟

منذ أن أنهيتُ دراستي الثانويَّةَ وذهبت إلى باريس لدراسة علم النفس في السوربون وقد تغيَّرَت حالي. هناك في عاصمة النور أُضِيئَت أنوار رُوحي وجسدي. ظَلَلْتُ لفتراتٍ طويلة أتذكَّر المَرَّةَ الأولى بكل شَغَفٍ، ثم تَلَتْها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ يتغيَّر فيها كل مرَّة الشريك، ولا يتغيَّر شَبَقِي للجنس وسعادتي من خلاله. ربَّما لم يكن الجنس تحديدًا، لكنه التَّوْق للتَّلامُس، الإحساس بِحِضْنٍ دافئ يحتويني، حتى لو كان لِلَحَظَاتٍ يرتدي بعدها كُلٌّ مِنَّا ثيابه، ويدير ظهره للآخر. لم أَعُدْ أتذكَّر عددهم بالطبع. كان هناك الصغير والكبير والشاب والعجوز، الأوروبي والعربي والأفريقي والآسيوي واللاتيني، كلٌّ له مَيْزَةٌ أو مَيْزاتٌ أحاول أن أفتِّش عنها داخله وأُغْدِقَ عليه كي يُغْدِقَ عَلَيَّ بدوره ويُشْبِعَني. آمنتُ دومًا بأن العلاقة الحميمة دائرة كهربائية مُغْلَقَة، لا نعرف بدايتها من نهايتها، نُوقِنُ فقط أنه حين تكتمل الدائرة يُشِعُّ النور والأمل والرغبة في الحياة.

التقيتُ مراد في إحدى الحفلات في باريس. شربنا وثملنا ورقصنا وعاد كلٌّ إلى سكنه. دعاني في اليوم التالي للقهوة بجانب السوربون، وشاركني تفاصيلَ حياته التي تُشْبِهُ كثيرًا تفاصيلَ حياتي.

فلسطينيٌّ غادَرَ أهله الوطن إلى الأردن مع المُغادِرين عام 1948، واتَّخذوها وطنًا بديلًا، درس بالجامعة الأردنية القانون والتحكيم الدولي وأصبح من أهم المُحَكَّمين في المملكة والوطن العربي، ثم أتى إلى باريس في مِنْحَةٍ حكوميَّةٍ لدراسة الدكتوراه. توطَّدت لقاءاتنا وتقارَبْنا بعد جِلْسَةِ المكاشَفة، واحتلَّ لقاء مراد خانةً دائِمَةً من جدولي اليومي. كنت أتساءل كلَّ مرَّةٍ متى سيدعوني إلى شقَّته؟ متى سيطلب مني الدخول إلى حجرتي بعد أن نسير مسافة أربعة كيلومترات من الجامعة حتى مكان سكني مع سيدة فرنسية مُسِنَّة؟ لا أنكر الآن رغبتي الشديدة فيه منذ لقائنا الأوَّل، ولم أحاول إخفاءَها في كل فرصة تَسْنَحُ لي، لكنَّه كان يتجاهلها دائمًا. لا أعرف لماذا توقَّفْتُ عن لقاء آخرين منذ أن تعارفنا، وعُدْتُ لفضيلة أو رذيلة الإشباع الذاتي، والتي أقسمت على التوقُّف عنها منذ مجيئي لباريس، وكنتُ أقتبس قَوْلَ صديقتي الشركسية المتديِّنَة "إذا وُجِدَ الماءُ بَطُلَ التيمُّم"، وعاصمة النور تجود بالماء بمذاقاتٍ متنوِّعَةٍ مختلفة. ربما لأنني كل يوم كنت أنتظر لقاء فريدًا معه. انتظرت وانتظرتُ، ولم يتحقَّق، إلى أن فاجأني بعد نحو شهر من تعارُفِنا بطلبه الزواجَ منِّي!

"أنتِ وطني"، قالها بصورة مباغتة ومُرْبِكَة.

"أيُّ واحـد منهم؟ الوطن الأصلي ولَّا البـديل؟". رددتُ عليه مازِحَةً ومُشاكِسَةً كي أُبَدِّدَ ارتباكي.

"أنتِ وطني الروحـي. ألا يوجـد الأب الروحـي والأم الروحيـة؟

فلماذا إذن لا يكون هناك وطنٌ روحيٌّ يضمُّ ويحنو ويرفق ويرحم ويُواسِي؟". أجابني بِنَبْرَةٍ أَلْجَمَتْ لساني الذي لا لاجِمَ له مهما كان الموقف.

شُلَّ تفكيري لثواني معدوداتٍ، ثم عاد إليَّ أكثر حدَّةً واتِّقادًا عن أيِّ وقتٍ مضى. ها هي فرصتي قد جاءت كي أشفي شبقي وتَوْقِي إليه.

"تعال إذن أُعَرِّفْكَ على وطني وملاذي وملجئي!". جذبْتُه من يده تسبقني رغبتي في إغلاق الدائرة الكهربائية مع زَوْجٍ مُحْتَمَلٍ هذه المرَّةَ.

كنتُ أردُّ على حديثه معي ونحن مُتَّجِهَيْن نحو غرفتي، بينما ذِهْني في حوارٍ آخر مع النَّفْس. لو لم يُشْبِعْني جسدًا وروحًا ومُجُونًا وانفلاتًا كعربيٍّ يُمارِسُ الجنسَ مع امرأةٍ طَلَبَها توًّا للزواج فلا بأس، على الأقل أكون قد ذُقْتُهُ وشَفَيْتُ تَوْقِي، وكَسَرْتُ فترةَ صيامي الطَّوْعِي، حتى لو كان الإفطار على بصلة نَيِّئَة. ولو جاء كما تمنَّيْتُ وحلمتُ وتطوَّرَتْ العلاقةُ بعدها بما يسمح بتفكير جَدِّيٍّ في الزواج؛ فسأقطع عليه أيَّ محاولة مستقبلية للإشارة إلى علاقاتي المتعدِّدة التي كانت واضِحَةً بالفعل لكلِّ مَن يقترب مني في غُرْبَتِي، ولن يَدَّعي يومًا ما أنه كان لا يعرف.

كان مراد أكثرَ من رائع. عرف مفاتيح جسدي وروحي بلا أيِّ توجيهٍ أو تلميح منِّي. أيقن أن ارتواءَ جسدي هو وطن اللجوء بالنسبة لي الذي لا أتوازن نفسيًّا في غيابه أو الابتعاد عنه. انتقلتُ للعَيْشِ معه في شقَّته

الصغيرة كي أوفِّر إيجار الحجرة التي أقيم فيها والوقت الذي أقضيه في مُسامَرَةِ العجوز الفرنسيَّةِ، وأتفرَّغ لِزادٍ يُشْعِرُني بالنَّهَمِ كلَّما اغترفت ونَهَلْتُ منه.

عُدْنا للأردن، وتزوَّجنا، ورُزِقْنَا بولدٍ. سارت بنا الحياة وبدأ التَّعَوُّدُ والمَلَلُ يضرب علاقتنا. فَتَرَ شَوْقُ مراد وشَغَفُه بالتواصل الحميم معي، وإن كان مستمرًّا، ولم يَفْتُرْ حُبِّي له أو شَبَقِي لارتواء الجسد، حتى مع غيره. أصبح كثيرَ الشَّكِّ، حتى لو لم يُفْصِحْ، وإن واجَهْتُه يُعَلِّلْ أنها الغيرة. شَتَّانِ بين الغيرة والشك. الغيرة بقدرٍ تُسْعِدُ المرأة، والشكُّ يُهينها ويُقَلِّلُ من الرجل. فقدت مُتْعَتي معه. لم أَعُدْ أهتمُّ أن يواصل جُنْدُبُ الليلِ الصَّريرَ بصوتٍ يصمُّ الآذان، أو أن يرفع المؤذِّنُ عقيرتَه القبيحة بآذان الفجر، أو أن يطرحني أرضًا ويواصل حركةً رتيبة مثل خَضِّ الجدَّات لِقِرْبَةِ اللبَن كي يتخثَّر ويصير زبدًا. أُباعد ما بين فخذيَّ، وأترك البندول يتحرَّك حتى يندفع اللبن المتخثِّر ويَهْمَدَ كخرقةٍ باليَةٍ لا تصلح حتى لِمَسْحِ أرضيَّة الحمَّام أو سلم العمارة المُتَّسِخ.

عُدْتُ من حيث بدأت، بلا أي شعور بالتناقُض أو الخيانة. أسافر في رحلات قصيرة للخارج يسمح بها عملي لحضور ورشات عمل أو ندوات، فأنْهَلُ قدر الإمكان ممَّا يرويني ويساعدني على فترات الجَدْبِ عند العودة للبيت. ظللتُ على حُبِّي وعشقي لمراد. هذه ليست خياناتٍ بالمرَّة.

ألسنا نُعَوِّضُ نَقْصَ العناصر الغذائية الضرورية لِصِحَّةِ الجسد بِمُكَمِّلاتٍ غذائيَّةٍ وفيتامينات؟ هل نعتبر أنفسنا نخون فاكهةَ المانجو إذا أقبلنا على البرتقال في غيابها؟ هل نخون عِشْقَنَا لحلوى العثمانليَّة بالقشدة إذا تناولنا الكنافة بالفستق؟ نحبُّ هذا، ونعشق ذاك، ونعود للديار.

ثم تعرَّفْتُ إلى صديقاتي من مقهى سالوتِّه، وعَرَفْنَ عنِّي -دون الشركسيَّة التي ستطلق عليَّ أحكامًا أخلاقيَّةً ودينية بلا شك- ربما ما أخجل من ذِكْرِه أمام أخريات. حتى المتلصِّصة الرابعة التي انضمَّت إلينا مؤخَّرًا، لا أخجل أمامها من ذِكْرِ إشاراتٍ ضمنيَّةٍ تفهم منها طبيعتي، فحافظتُ على سلام نفسي معهنَّ حتى الأسبوعين الماضيين حين تأخَّرَت الدورة الشهرية وبدأت مخاوِفُ احتمالات الحمل تداهمني وتعصف بي في ظلِّ علاقاتي في سَفْرَتِي الأخيرة قبل شهر. ذكرت مرَّةً -عَرَضًا- أمام الناقة مخاوفي من وجود طفل في أحشائي لا أعرف والده على وجه اليقين. فمطَّت شفتيها بلا مبالاة، وقالت بلا أي إدانة أو لَوْم: "حمل ولا مو حمل فيه أطباء ومختبرات وتحاليل". أخذت اقتراحها على محمل الجدِّ، وقرَّرْت زيارة الطبيب وإجراء التحاليل لقطع الشكِّ باليقين.

الدُّرْجُ الصغير القابع في الخزانة أسفل الفساتين الطويلة به مفتاحُه الأسود الصغير دائمًا، ممَّا ينتفي معه الغرض من إخفاء الأشياء الثمينة. تقع عيني على المفتاح الصغير بالحلقةِ المعدنية التي تتدلَّى منه فيغري بفتحه ومشاهدةِ

ما بداخله: شهادات الميلاد، مراسلات البنوك، بعض فواتير الكهرباء والغاز الطبيعي، خاتم ذهبي لا أرتديه. من بين كل المعادن القبيحة أَمْقُتُ معدن الذهب الأكثر قُبحًا، جوازات سفر عديدة لم يَعُدْ بها صفحات خالية لتأشيرات جديدة، بالرغم من أنها لا تزال سارية. فلَّايَةٌ من العاج لونها بيج فاتح مائل للصَّفار منحوتة يدويًّا من سِنِّ الفيل الطبيعي، من ناحيةٍ سنون ضيِّقة للغاية تراكَمَت الأوساخ على جانبيها، ومن الناحية الأخرى سنون أكثر اتِّساعًا. أعطتها لي جدَّتي هديَّةً قبل وفاتها كي أمشِّط بها شعري البُنِّيَّ الطويل. أغمضت عيني وتذكَّرْتُ جدَّتي وسطحَ بيتنا القديم والشمس الحارِقةَ ورائحةَ الياسمينة التي كانت تُزْهِرُ مساءً، وتموت وتذبل مع شمس النهار. اختفت الفلَّايـات من أرصفة الشوارع، فهل اختفى القمل من الرؤوس؟ قصاصـة ورقيـة عليها اسم الفندق الذي نزلت فيه في مانيلَّا، وعليها بعض أبيات كتبها خوسيه ريزال، ودوَّنت عليها:

(ما بُنِيَ على الرِّمال سينهار إِنْ عاجِلًا أَمْ آجِلًا).

أمسكت بالكيس الأسود الجلديِّ الثقيل، وضعته على كفِّ يدي كما لو كنت أزِنُه لأتأكَّد من محتواه. فتحت بحرصٍ السَّحَّابَ المعدنيَّ بينما تتسارع دقَّات قلبي مع انفراجة جانبي السَّحَّاب الحديديَّتَيْن. لمع المعدن وسط عَتَمَةِ الحجرة، أمسكتُ بورقة بيضاء صغيرة داخل الكيس الجلدي: مسدَّس بريتَّا خفيف إيطالي الصنع. وبينما كنت في طريقي الطويل من وضع الجلوس لوضع الوقوف لمحت نتيجة الحائط:

الأربعاء. لن أذهب لصديقاتي هذا الأسبوع أيضًا.

لأوَّل مرة أفطن لخيوط العنكبوت الدقيقة الكامنة في زوايا الحجرة، وتلك التي تسكن رأسي عادةً بعد الكأس الرابعة. تُرَى، لو ذهبت معهنَّ إلى نالْتْشِك –تلك المدينة الغريبة البعيدة– هل سيعود لي بعضٌ من صفاء ذهني؟ أي مغامرة تنتظرني هناك؟ هل سأكفُّ عن شعوري بخيوط العنكبوت داخلي؟ بَدَتْ الخيوط تلك الليلة أكثر سُمْكًا وتشابُكًا رغم ظلام الحجرة نسبيًّا. ضيَّقْتُ حَدَقَتَيْ عينيَّ. تأكَّدْتُ من أنها فعلًا خيوط عنكبوت. تثاءبتُ بصوتٍ عالٍ وخبطت بيدي عدَّة مرات على شفتَيَّ؛ فجاء التثاؤب كنغمة مكتومة متقطعة "واو واو واو واو واو!"، فضحكت بصوت عالٍ. بلعتُ آخر رشفة في الكأس وخوفي المرضي من العناكب. تحرَّكتُ ببطء نحو الهدف. ترنَّحْتُ في خطواتي قليلًا وواصلتُ السَّيْرَ. عند التقاء الحائطين في زاوية قائمة. رأيت عنكبوتًا في حجم عقلة الإصبع الأولى في إبهامي. أخذ يحرِّك أقدامه بِخِفَّةٍ وسرعة غير عادية، ورأيتُ زغبًا دقيقًا يشبه الزغب الذي ينبتُ لي في جانبي صُدْغِي وأذهب للكوافير لصباغته باللون الأشقر حتى لا أُضْطَرَّ لنزعه بالفتلة ويؤلمني. أعلى قليلًا توجد ذبابةٌ قادها حَظُّها العَثِرُ إلى شِباكِه. أين ذهَبَت خِفَّتُها ومُراوَغَتُها حين سقطت فريسةً سهلةً له؟ بدأت الذبابة ترتعش قليلًا والعنكبوت يُسْرِعُ الغزلَ والنسج، وأنا أراقب في استمتاعٍ مترنِّحَةً من مشروبي وثِقَل مسدس البريتَّا في يميني.

ارتعشْتُ على سرير الكشف من برودة الحجرة. أخرجَ الطبيب المنظارَ

المهبليَّ من جهاز التعقيم الذي يشبه ماسورة البريتَّا 9 مللي. وضع عليه "الچِل" الأزرق البارد اللزج. حبستُ أنفاسي وهو يحشره داخلي بصعوبةٍ وإصرار. أَشَحْتُ بوجهي صَوْبَ الحائط كي أتجنَّب نظرات الطبيب. اخترقني المعدن البارد. زَمَمْتُ شفتيَّ ويَبَّسْتُ أعضائي. تأتأ الطبيب بصوت خفيض:

"استرخي وأَرْخِي أعضاءَكِ"

وبدلًا من الحركة الدائرية المُعتادَة والمتوقَّعَة في مثل هذا النوع من الأشعة. والنظر تجاه شاشة المونيتور، خُيِّل لي أنه يُصَوِّبُ نظراته على وجهي ورغباتي وروحي. تشبَّثْتُ بحرف السرير، وضغطتُ بكلتا يديَّ على المُلاءةِ البيضاء. عَضَضْتُ على أسناني وشَفَتَيَّ، وضَمَمْتُ فَخِذَيَّ بقوَّةٍ. مدَّ يده العارية من القفاز بهدوء، وأبعد الفخذين عن بعضهما. بدأ يحرِّك المنظارَ إلى الداخل والخارج ببُطءٍ ورِقَّةٍ مرَّةً، ثم بقوَّةٍ وسُرْعَةٍ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.

أَرْخَيْتُ قَبْضَتي وعضلات فخذيَّ، وأغمضت عينيَّ في استسلام واستمتاع. أخرج الطبيب المنظار، ومسح "الچل" الأزرق البارد، و"الچلَ" الأبيض الدافئ، وعاد إلى مكتبه في انتظار أن أرتدي ملابسي وأعود إليه.

"Everything is fine. Just pre-menopause"

بداية انقطاع الطمث وليس الحمل! تلك الحالة التي تكلَّمَتْ عنها صديقاتي العام الماضي وأسْهَبْنَ في وصف أعراضها. ظننتُ وقتها أنني بعيدةٌ

تمامًا عنها. ما زلتُ في منتصف الأربعينات. صديقاتي في أوائل الخمسينات. تساويتُ الآن مع ثلاثتِهِنَّ. لم أَعُدْ صغيرتَهُنَّ التي تتعمَّدُ ذِكْرَ آلامِها الشهرية بلا مُراعاةٍ لمشاعرِهِنَّ، أو تتعمَّد تَرْكَهُنَّ في السيارة أمام الصيدليَّة كي تشتري الفُوَطَ الصحية أمامهنَّ. كم من مرَّةٍ مازَحْتُهُنَّ بأنني سأصول وأجول في نالْتْشِك، وأُسَبِّب ثورةً لدى الشباب الشَّرْكَسِيِّ العازِفِ عن الزواج من عربيَّاتٍ في الأردن؛ ليعرفوا ما يفوتهم من مُتَعٍ! بدأتْ إذن هذه المرحلةَ من العمر التي قد تُضْطَرُّ فيها المرأةُ الرَّاغِبَةُ إلى تقديم هدايا أو حتى نقود لتَحْظَى بليلةٍ دافئة.

مَدَدْتُ يدي على زاوية الحائط في محاوَلَةٍ يائسةٍ لتحرير الذبابة. انقطعت الخيوط الواهية، وقَفَزَ العَنْكَبوتُ فَجْأةً لأجده على كتفي العاري. سَكَنَ لحظةً، ثم بدأ في التَّحَرُّك النَّشِط. شعرت به على كتفي ووجهي ورأسي وداخل مهبلي وأوعيتي الدموية. تحرَّكَتْ كُلُّ العناكب الساكنةِ دَمِي ورُوحي دَفْعَةً واحدةً. ركَّزْتُ بصري على البُقْعَةِ الدَّاكِنةِ النَّشِطَةِ، وصوَّبْتُ فُوَّهَةَ البريتَّا تجاهَها.

* * *

18

العَنْــزَةُ

النَّبيذُ أحمرُ

وكذلِكَ دَمِي

على حَبْلٍ مُتَهَرِّئٍ أَرْقُصُ

رَأْسٌ بِلا مُخٍّ

جَسَدٌ بِلَا رَأْسٍ

ولا أَخْشَى السُّقُوطَ

لِمَ يَخافُ اليَمامُ مِنَ الأَطْفَالِ هُنَا؟
لِمَ يَشْعُرُ بالأَمانِ هُنَاكَ؟
لِمَ نُحِبُّ الوَرْدَ جَافًّا
ونَخْشَى أَشْوَاكَهُ مُبْتَسِمًا عَلَى أَغْصَانِهِ؟
طَارَدَ العَجُوزُ القَبِيحُ الطِّفْلَةَ الصَّغِيرةَ
أَعْطَاهَا حَلَوى
واقْتَلَعَ مِنْها قُبْلَةً شَهْوَانِيَّةً
طَعْمُ غَزْلِ البَناتِ لا يَزالُ عالِقًا فَوْقَ شَفَتَيْها
وطَعْمُ الـجُرْحِ يُمَزِّقُ رُوحَها
مَنْ يُبَادِلُ بِرَأْسِي الـخَاوِيَةِ
كَوْمَةَ تِبْنٍ؟

تتردَّد داخلي دائمًا تلك الأبيات عندما أبدأ الـجَدَلَ اليوميَّ معه، ويبدأ الشجار:

"سنغادر شيكاغو. أَمْقُتُ هذه الولايةَ اللعينة"

"لا أريد المغادرة. بيتي هنا. عملي هنا. أنت هنا"

يصْفِق الباب بعنفٍ ويتركني. أجرى إلى البار الصغير وأفتح زجاجة نبيذ أحمر، وأبدأ ليلتي.

I do not know...

حقًّا لا أعرف أي شيء. صِرْتُ لا أعرف أيَّ شيء! أنا مَن كنت عالِمَةً عِلْمَ اليقين بالأمور كافَّة، ما ظهر منها وما بَطَنَ أستيقظ منتصف الليل فلا أعرف أين أنا. عندما أتيقَّن من أنني في مدينة "مادبا"، وأنني قَبِلْتُ أن أترك التدريس في الجامعة المرموقة في شيكاغو، لأنضمَّ إلى هيئة تدريس هذه الجامعة المقيتة، وأضطرَّ للتعامُل مع طَلَبَةٍ مُوَزَّعين، ضائعين بين مجتمع محافِظٍ خارج أسوار الجامعة، ومجتمع مُتَفَتِّحٍ يَعِدُ بجنَّاتٍ في الخارج. أتشكَّك في قوايَ العقلية، وفي يقيني السابق Shame on me. ربما تغيَّر الأمر قليلًا بعد أن تعرَّفْتُ إلى النساء الثلاث، وأصبحت أنتظر أربَعاءَهُنَّ كي أبدِّدَ بعضًا من حاضري وجُزْءًا من ذكرياتي. Why the hell am I here? لا أعرف. هكذا تكون قراراتي دومًا متسرِّعَةً وغير محسوبة. تحرِّكني مشاعري التي أثق فيها كثِقَتي في عقلي ومنطقي. لطالما اختبرتها فتأتي النتيجة مُبْهِرَةً. صِدْقُ حَدْسِي يساوي أعلى درجات المنطق لدى آخرين I am really screwed.

كان نفس القرار المستند إلى مشاعري منذ سنوات طويلة. تركتُ خطيبي

قبل الزَّفاف بأسبوعٍ عندما جاءت أخت "ناجي" إلى بيتنا، وأخبرتني أنه يَوَدُّ أن يتزوَّجني.

Yea, believe it or not. ناجي قـرَّر أخيرًا أن يتزوَّجني. تركني قبل سبعة عشر عامًا وغادر لأمريكا، وتجيئُني أخباره: تزوَّج من أمريكية تكبره بعشرين عامًا ليحصل على الجنسية. رُزِقَ منها بطفلة. انفصل عنها. تطلَّقا وأخذت الطفلةَ معها. ويعاوِدُني الأمل أن يعود إلى مصر ونكمل حياتنا معًا كما كُنَّا نحلم. تَصلُني أنباء أخرى. ناجي تزوَّج من أمريكية ثانية تصغره هذه المرة بخمسة أعوام؛ أي في مثل عمري. رُزِقَ منها بطفل. انفصل عنها بعد أن أحبَّت لاجئًا أفريقيًّا. تَطَلَّقا، تركت له آدم وغادرت. وأنتظره ولا يأتي. وأقابِلُ عزَّت، وبعد سنتين من الخطوبة، وقبل الزفاف بأسبوع يرسل ناجي أخته لتخبرني أنه قرَّر أن يتزوَّجني. أليس هو دائمًا مَن يُقَرِّر، وفي الوقت الذي يراه مناسبًا؟ اتَّصلتُ به هاتفيًّا كي أنفجر في أذنيه وأسمعه صراخًا وهجومًا وتوبيخًا وتقريعًا وأقول له بنفسي: "لا" لن أتزوَّجَك. سأتزوَّجُ عزَّت الذي ينتظرني، ويتحمَّلني، ويصغي لي ويواسيني. أنا مَن سيقول "لا" هذه المرة. سأضع في هذه الـ"لا" كلَّ غضبي وحزني وألمي. لا، وألف لا يا ناجي.

جاءني صوته، نفس الصوت الذي كان له منذ سبعة عشر عامًا. أصواتنا لا تتغيَّر مهما تغيَّرَت النبرةُ فرحًا أو تَوَسُّلًا أو ألَمًا. يبقى الصوت الذي حَفَرَ له مكانًا في الذاكرة والرُّوح، وفجوة في الأذن تتوق لمن يملأها بنفس الذبذبات دون غيرها.

"سأتزوَّجك. أرسلت لعمِّي توكيلًا مُوَثَّقًا لينوبَ عني في عقد القران. سأرسلُ لك بطاقةَ السفر على درجة رجال الأعمال بعد أسبوعٍ واحد. أنتظرك بثوب الزفاف الأبيض. لا تتركيني أنتظر طويلًا. تعرفينَ أنني لا أحبُ الانتظار"

"ناجي. ممكن أسبوعين حتى أستعدَّ؟"

"لا. لا. أسبوع واحد فقط. حجزت بالفعل بطاقات السفر لهاواي بعد وصولك بيوم، ولن أستطيع إلغاءها أو تعديل الموعد"

ذاب غضبي وألمي تمامًا كما ذابت قطعة السُّكَّر في فنجان الشاي الذي قدَّمَتْه لي مضيفةُ الطائرة المُتَّجِهة إلى شيكاغو وأنا جالسة على مقعدي في درجة رجال الأعمال بثوب الزفاف الأبيض. أنهيتُ علاقتي بعزت. لم آسف له، بل العكس Thank God أن ناجي قد قرَّر الارتباط بي قبل زفافي بأسبوع، ولم يتَّخِذْ نفس القرار وأنا زوجة لعزت وأم لطفل أو طفلين. كنت أعرف أنني أحيا منتظرةً مكالمة وقرارًا منه، وأنه حين يحدث ذلك سأترك دُنْيايَ وما عليها ومن عليها لأهرع إليه حيثما يكون. لم أكن غافلةً عن عيوب ناجي. كنت أعرفها جيِّدًا، ومع ذلك أحبُّه. وأردِّد كلمات نجيب محفوظ دائمًا (أقصى درجات السعادة هو أن نجد مَن يُحبُّنا فعلًا، يُحبُّنا على ما نحن عليه، أو بمعنى أدق يحبُّنا برغم ما نحن عليه).

في مطار شيكاغو وجدت نفسي مرتميةً في حِضْنِهِ كما كنت منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، وإن غُصْتُ في صدره هذه المرَّةَ بعد أن زاد وزنه بصورة ملحوظة. قابلني ناجي بباقة وَرْدٍ وآدم ابنه الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، ويحبُّ أن يناديه الجميع باسم "مادي". ابتسم لي مادي بِخُبْثٍ وهو يمدُّ يده ويتفحَّصُني قائلًا: "Funny dress".

مرَّت بنا السنوات ليس كما حَلُمْتُ تمامًا، لكنني اجتهدت كي أُضْفِي عليها بعضًا من الحُلْمِ، I swear I did، لم يتغيَّر ناجي كثيرًا. هو برج جَدْيٍ بامتياز. هو محور الكون ومحيطه وحواشيه، كريمٌ سَخِيٌّ على نفسه أوَّلًا، ومِعْطاءٌ وكريمٌ للآخرين بما يفيض عن حاجته. يفرح لأبسط الأسباب، ويغضب لأَتْفَهِها، ينقصه الحِلم، الصبر المُغَلَّف بالحنان مع مَنْ يحبُّ، أو على الأقل مع مَنْ يُدْرِكُ أنه يحبُّه. وتحمَّلْتُ. كنت أدرس صباحًا، حتى حصلت على الماجستير في تدريس اللغة الإنجليزية كلغةٍ ثانية للأجانب، وأوزِّع أوقاتي: في النهارات مُشاحناتٌ لا تنتهي مع مادي الذي بدأ فترة مراهقة عنيفة وصادمة ورافضة للجميع، وأنا أوَّلُهُم، فكان لا يُضَيِّعُ فرصةً واحدة إلَّا وينتهزها للتسفيه منِّي، والتهكُّم على لَكْنَتِي. كان يطلب مني تكرارَ الجملة عدَّة مرَّاتٍ بِحُجَّةٍ أنه لا يفهم كلامي، رغم أنني كنت واثقةً من أنه فهمني من المرة الأولى. وفي الأمسيات مساعدةُ ناجي في المحلِّ الصغير الذي يمتلكه ويبيع فيه بعض البِقالَةِ للمصريين والهنود والباكستانيين، وبالتالي كان معظم زبائنه وأصدقائه من الأقلِّيَّات التي تشعر أنها تعيش

على هامش المجتمع، وتحاول التَّمَسُّكَ بهويَّتها وجذورها عن طريق التهام عُلَبِ الفول المدمِّس وتوابل الكاري والمانجو المخللة. وسارت الحياة على هذه الوتيرة الطاحنة المُحْبِطَةِ، إلى أن كان اليوم المشؤوم.

The bloody Skate board... خرج مادي بِصُحْبَةِ أصدقائه للتَّسابُق على ألواح التَّزَلُّج، ولم يَعُدْ. سقط سقطةً عنيفة وارتطم رأسه برصيف إسمنتي، فشلت كل المحاولات لإنقاذه وإن أبقته حيًّا بفضل أجهزة المساعدة على الحياة. دخل في غيبوبة لم يُفِقْ منها حتى بعد مُضِيِّ ثلاثة أعوام من الحادث. توقَّف ناجي عن زيارة ابنه في المستشفى وبدأ في التردُّدِ على أطبَّاء العيادات النفسية، أدمن مضادَّات الاكتئاب ولومي، وأدمنت النبيذ الأحمر. لا يمرُّ يومٌ واحد دون الإفراط في الشراب. أُفْرِغُ في جوفي زجاجاتِ النبيذ ونظرات اللوم والعتاب وتحميلي مسؤولية ما حدث بلا ذنب. زادت نوبات غضبه وفترات خصامنا. كنت دائمًا أبدأ بمحاولات التقرُّب والصلح، لا عن ضعف أو إقرار بخطأ أو ذنب، ولكن لِعِلَّةٍ بي، ربَّما عِلَّتان أو عِدَّة عِلَلٍ؛ فأنا لا أطيق الخصام، كما أنني أنسى بصفة دائمة ما حدث، أتجاوز الموقف والزَّعَل، وأبادر بالصلح، وأصبحت هكذا الحياة بيننا. وإذا عزمتُ على ألَّا أبدأ بالتقرُّب منه، وأقسمتُ بكل مُقَدَّسٍ لديَّ ألَّا أبادر، يتركني شهورًا طويلة حتى أكاد أفقد صوابي وأعود إليه أسترضيه. كنت أقول لنفسي ولأيِّ صديقة تأتي إليَّ طَلَبًا لنصيحة أو مشورة "لا تنتظري مَن يعرف أنك تنتظرينه ولا يأتي"، ولا أستطيع

أن أنفِّـذ ما أنصحهنَّ بـه. لم يَعُدْ ناجي الذي كان، ولم أَعُـدْ أنا مَن كُنْتُها، ولم يَعُدْ مادي المراهق المشـاغب المُسَفِّه لي ولطباعي ولغتي، فكان قراري بالهروب إلى أيِّ مكان آخر. فكَّرْتُ في العودة لمصر ولم تَسْـتَهْوِني الفكرة. بل فزعـت منـها. انقطعت علاقتي بالـوطـن بعـد وفـاة أمـي، الوحيـدة التي تقبَّلَت قـراري بقطع علاقتـي بعـزت، والسـفر بثـوب زفاف أبيض لناجي بعد كل ما بـدر منه تجاهي. أمَّا أختي الصغيرة فأطلقت عليَّ لقب "الاستبن" لَمَّا عَلِمَتْ بقبولي الزواج من ناجي، وانقطعت علاقتي بها بعد هذه التسـمية الـمُهينة. This is funny لماذا غضبت منها، وقد كانت مُحِقَّةً في خلـع هذه الصفة عليَّ؟ ربما لهذا السـبب تحديـدًا مَقَتُّها، فالحقيقة حين تؤلم بصدقٍ نكره قائلها بدلًا من مواجهتها.

قرَّرْتُ قبـولَ عقد العمل الذي عُرِضَ عليَّ لتدريس اللغة الإنجليزية في الجامعة الأمريكية في مادبـا. فَلْتَكُنْ مادبا أو بيروت أو زعبوط، لا فرق؛ كلُّنا لاجئون، تلفظنا أوطاننا، أو نلفظها، ونسعـى إلى أخرى علَّنا نجد الـملاذ والـمأوى والملجأ. والآن أجـد نفسـي موافِقَةً على السفر مع صديقاتي لنالْتْشِك بلا سببٍ سوى إدمان الهروب والاختباء في المدن التي تختلف أسماؤها ولا يختلف غُبَارُها.

* * *

19

مطار الملكة علياء

جاء الدكتور فولك وهو يضع قطعة بلاستر طبيّ فوق حاجبه الأيسر من أثر الحادث. وقَّع على التقرير باسمه كاملًا، ووقَّعْتُ أنا وألما عليه بالأحرف الأولى من اسْمَيْنَا، وضعناه في مظروف من مظاريف الفندق، وكتبتُ عليه من الخارج باللغتين الإنجليزية والعربية "مخيم الزعتري". أَخرجَ الدكتور فولك من حقيبته قطعةَ شمعٍ حمراء باهتة، واستعار ولَّاعةَ سجائري، وصوَّب اللهب نحو قطعة الشمع حتى ذابت الطبقة الأولى، ثم خَتَمَ المظروف. احتضن ألما، ثم احتضنني، لكن فترةً أطولَ من احتضانه

لها. نظر من النافذة نحو التلال الجاثمة على صدر المدينة منذ قرون، وتكلَّم كما لو كان يُحَدِّث نفسه: "تُرى، هل هناك جدوى فيما نفعله؟".

اندفعت ألما بجديَّةٍ غريبة منها، وبِثِقَةٍ حسدتُها عليها: "إي أكيد دكتور. صحيح ما رَحْ نرجعهن على بيوتهن، وما رَحْ نُوقِف الحرب والچنون، ولا رَحْ نردلهن اللي راحوا، لكن سمعناهن دكتور. عطيناهن من وقتنا. الفضفضة بتريح وبتشفي الروح، وبتخدر الألم. عطيناهن من وقتنا وچزء من عمرنا". صمتتْ ثواني ثم أكملت: "وهن كمان عطونا كتير. عطوني الأمل، القوة الخفية اللي بتاچي من چوا، من منطقة مچهولة بعيدة وقت الچرح والشدة ووقت منخسر ناس قريبة إلنا".

أمسكَت بهاتفها وضغطت على سمَّاعة الصوت، واستعادت بسمتها لتصدح جارة القمر بأغنيتها العذبة (فيه أمل إيه في أمل. أوقات بيطلع من ملل).

غادر الدكتور فولك مُتَوَجِّهًا إلى بلده في استراحة قصيرة، قبل أن يغادرها إلى مدينة أخرى من مدن الغبار، وغادرت ألما عائدةً لوطنها الجديد: الولايات المتحدة الأمريكية، وبقيتُ في عمَّان كي أستعدَّ لرحلتي المرتقبة لمدينة نالْتْشِك مع النساء الأربعة وأمِّ الشركسيَّة، وبعض من أفراد عائلتها.

في مطار الملكة علياء تقابلنا وقد قارب العدد على ثمانية عشر شخصًا، أو ربما أَزْيَدَ، إذا أغفلت طفلًا أو طفلين من أطفال العائلة لحركتهم الدائمة. جميعنا من النساء، باستثناء الشاب "شامل" أحد أقارب العائلة. تَحَلَّقْنا جميعًا حول المقعد المتحرِّك الذي تجلس عليه أم الشركسية. منذ وصولها للمطار وهي تتحدَّث باللغة الشركسية، أو ما تبقَّى لديها في الذاكرة من لغة الجدود. تقمَّصَت شخصيَّةً متسلِّطَةً ناهيةً آمِرَةً. كانت السعادة بادِيَةً تمامًا على ملامحها. تتحدَّث وتُعَلِّقُ بِلُغَةٍ لا أعرفها، لكن يبدو أن أفراد عائلتها يفهمون معناها، أو هكذا تَوَهَّمْتُ. تحتضن حقيبةً أشبه بـ"الصُرَّة" من الخيوط المشغولة والمُوشَّاة بخيوط ذهبية وفضية رائعة، تبعث على البهجة بمجرد رؤيتها، وكلما حاولَت سَتانيه ابنتُها أو أحد الأقارب حَمْلَها عنها، تنهرهم بشدَّة وتعاود احتضانها. ظلَّت المُهْرَة تتندَّر عليها، ترسل النِّكاتِ وتشيع جوًّا مبهجًا كما لو كُنَّا في رحلة مدرسية، وما إن تقترب من الحقيبة القماشية حتى تضربها الأم القعيدة على ظهر يدها وترطن بالشركسية، فما كان من الشاب الشركسي الوحيد وسط مجموعة من النساء والفتيات إلا أن اقترح مكافأةً لمن تستطيع تخمين ما بداخل الصرة القماشية المزركشة. بدأت التخمينات من الجميع بصوت خفيض: لعب أطفال، مشغولات يدوية، مفارش مطرَّزة، شمعدانات فضية من إرث العائلة، حلوى أردنية، مكسَّرات، إيشاربات. كان يدوِّن في ورقة اسم الشخص وتخمينه ويأخذ خمسة دنانير، ثم طواها ووضعها في جيبه مع النقود التي جمعها، وبقيَ أن

نستطيع الوصول إلى الصُّرَّة لمعرفة ما بداخلها ومضاهاته بقائمة التخمينات وإعلان الفائز وتحديد الجائزة التي سنشتريها بالنقود في نالْتْشِك.

التدخين ممنوعٌ في مطار الملكة علياء بأكمله، باستثناء حجرة صغيرة في استراحة الدرجة الأولى ودرجة رجال الأعمال. ولَّما كانت التذاكر صادرة من شركة طيران Unour Air وهي إحدى الشركات التابعة للخطوط الجوية التركية التي يُطْلَقُ عليها Budget Airline أو رحلات عَرَضِيَّة بتذاكر مخفَّضة، فلم يكن مسموحًا بالطبع استخدامُ استراحة الدرجة الأولى. نظرت العنزة في بطاقات السفر وقالت ضاحِكةً: "شركة طيران اسمها أنور إير!؛ أول القصيدة كفر". قهقهت المُهْرَة وقالت: "خِدي أنور واتركيلي الإير، رغم إن أنور بلا إير ولا بيسوى فلس". ضجَّ الجميع بالضحك، بينما وضعت فتيات العائلة أيديهن على أفواههن يَكْتُمْنَ ضحكةً مُغَلَّفَةً بالخجل ممَّا لفت انتباه جميع المسافرين لهذه المجموعة الصاخبة التي تتحلَّق حول مُسِنَّةٍ على مقعدٍ متحرِّكٍ وتحتضن حقيبة قماشيَّةً مُبْهِجَةَ الألوان.

مرَّ الوقت في انتظار الإعلان عن موعد الإقلاع، وكلَّما اقترب الموعد يُعلَن عن إرجاء الرحلة لوقت آخر. بدأت المجموعة تتذمَّر لا سيَّما مع نقص النيكوتين لدى الأمِّ وابنتها وبعض أفراد العائلة. صَفَرَ شامل وغمز بعينه ناحية دورة المياه. اقترب، ووضع يده على فمه كما لو كان يتحدَّث في ميكروفون، ومُقَلِّدًا النداء على الطائرات: "على مجموعة المُدَخِّنات التَّوَجُّه فورًا لدورة المياه لتدخين سيجارة والعودة سريعًا قبل موعد الإقلاع."

ردَّت المُهْرَة: "بدل الإقلاع بِدّنا قلع". اتَّسعت ضحكة شامل لُمْزَحَتِها، وتطوَّع بالوقوف في الخارج لِيُنَبِّهَهُنَّ بالهاتف المحمول في حالة اقتراب أحد. ابتسمت المُهْرَة لاقتراحه الجسور، ولاحظت، كما لاحظ هو كذلك أنها لم ترفع عينيها عنه منذ وصولنا المطار. اعترضت الناقة بحزم على الفكرة الطائشة الخارقة للقواعد والقوانين، لكن ضاع اعتراضها دون جدوى وسط فَوْرَةِ الحماس التي اعترت المجموعةَ المدفوعة بغواية المغامرة وتحدِّي المحظور.

توجَّهَت المجموعة يتوسَّطها الشاب دافعًا الأم القعيدة نحو دورة المياه. انتظروا إلى أن دخلت المُهْرَة وتأكَّدت من خُلُوِّها سوى من المرأة البدينة التي تتولَّى أعمال النظافة، ثم دخلن جميعًا باستثناء الشاب الوحيد الذي تطوَّع بالوقوف في الخارج لمراقبة الموقف، والناقة التي رفضت الاشتراك في الجريمة وتوجَّهَت لإحدى الكافيتيريات لتناول مشروب. دسَّت المُهْرَة في يد العاملة خمسة دنانير فتهلَّل وجهها، قالت لها إنهن بحاجة لبعض الوقت بمفردهنَّ داخل دورة المياه لتغيير ثياب السيدة المُسِنَّة منعًا لإحراجها إذا ما تواجدت سيِّداتٌ غريبات. فهمت العاملة وهزَّت رأسها، وجرتْ لخزانة الأدوات، وأخرجت عدَّة بكرات من ورق التواليت ووضعتها على حوض الاغتسال، ثم مسحت الأرضية بممسحة تفوح منها رائحة الديتول والمطهِّرات، وتركت دورةَ المياه وانصرفت سعيدةً.

بدت دورة المياه كخليَّةِ نحلٍ دَبَّ فيها النشاط فجأة بمجرد خروج

العاملة. جلست الملكة في المنتصف على مقعدها المتحرِّك تحتضن صُرَّتها القماشية، بينما تفرَّق الجميع إلى مجموعات صغيرة من ثلاثة أو أربعة، كُلٌّ في رُكْنٍ، والجميع ينظر في قلق مشوب بالضحك إلى الباب الذي وقفت العنزة خلفه حتى تَحولَ دون دخول أي سيدة من الخارج. اتجهت الشركسية ناحية والدتها، أخرجت علبة سجائرها المارلبورو البيضاء، أشعلت سيجارةً وناولتها للأم، ثم أشعلت الثانية ووضعتها في فمها وبدأت تدخِّن بقوة كما لو كانت آخر سيجارة لها في عمرها وتودُّ أن تسحب كل ذَرَّةِ نيكوتين بها، وأمسكت في يدها علبةً معدنيَّةً صغيرة للغاية من عُلَبِ الحلوى المُطَهِّرَةِ للحلق، تحملها دائما داخل حقيبة يدها وتستخدمها كمطفأة متنقِّلَة للسجائر. المُضْحِكُ في الأمر أن بعض شابَّات العائلة انسحبن في هدوء وتوجَّهْنَ ناحية دورات المياه، ودخلت كل اثنتين أو ثلاث في كابينة واحدة. ارتفعت حواجب البعض دهشة والبعض الآخر استنكارًا. كان من الواضح أن نساء العائلة من الأُمَّهات أو الخالات لا يعرفن عن بناتهن أنَّهُنَّ يُدَخِّنَّ السجائر، لكنهنَّ تغاضَيْنَ عن الوضع حتى لا يُفْسِدْنَ الرحلة في بدايتها. بعد دقائق كانت المجموعة وأنا معها قد نسينا تمامًا أننا نرتكب فعلاً يُعَدُّ خرقًا صريحًا للقانون داخل إحدى دورات المياه في مطار الملكة علياء وانشغل الجميع، سواءً بالتدخين أو إصلاح الزينة أمام المرآة أو تمشيط شعورهنَّ، وتحرَّرت المحجَّبات -على قِلَّتِهِنَّ- من غطاء رؤوسهنَّ، واختلطت الأصوات بين مكالمات تليفونية أو أحاديث جانبية يقطعها صوت سعال متقطِّع مندفع من دورات المياه المغلقة؛ فعلى ما يبدو أن هناك مبتدئات قرَّرْنَ تجربةَ التدخين للمرة الأولى في حياتهنَّ.

عَلَتْ الأصوات، ونغمات الهواتف المحمولة، وعلا صوت السعال، وتكاثف الدخان الناتج عن سجائر أكثر من ثلاث عشرة مُدَخِّنَةً في حيِّز ضيِّق، إذا ما استثنينا اثنتين أو ثلاث، والأطفال المصاحبين لأمهاتهم.

سادت لحظات صَمْتٍ مباغِتٍ، تلاها خبطات متلاحِقَةٌ قويَّةٌ على الباب ومحاولات لدفعه من الخارج، وصوت جرس إنذار يصمُّ الآذان.

صرخت الأمُّ من فوق مقعدها المتحرِّك مُتَقَمِّصَةً إحدى الشخصيات من أفلام الأبيض والأسود المصرية التي تدمن مشاهدتها، وصاحت بلهجة مصرية صحيحة تمامًا "كَبْسَة يا معلِّمة". انفجر الجميع في ضحك هيستيري، بينما بدأت محاولة اقتحام باب دورة المياه. زادت العنزة من قوة الدفع في الاتجاه المقابل تساعدها بعض النساء، بينما سارعت الفتيات في إلقاء السجائر المشتعلة في أحواض الاغتسال والتواليت وعلى الأرضية. لم تصمد محاولات صَدِّ الهجوم الخارجي وسط تقاعس البعض عن ضَعْفٍ أو من جرَّاء نَوْبَةِ الضحك العاصفة، أو الانشغال بلبس الحجاب وتغطية الرؤوس. انفتح الباب أخيرًا عن مجموعة من ضُبَّاط المطار الهَلِعين، ورجال الحماية المدنية مُمْسِكين بطفَّايات الحريق، وواضعين الكمامات على أنوفهم والخُوذاتِ على رؤوسهم. اندفعت المُدَخِّنات السلبيَّات والإيجابيَّات إلى الخارج، وتَفَرَّقْنَ، كُلٌّ في اتجاهٍ، كحشود النمل حين تداهمه الأقدامُ وسط تَجَمْهُرِ المسافرين في الخارج، ولم يَتَبَقَّ داخل

دورة المياه سوى الأم القعيدة مُـحْتَضِنَةً صُرَّتَها على كرسيِّها المتحرِّك.

"رُبَّ ضارةٍ نافعة". تنهَّدت الشركسية أمام بوابة الصعود للطائرة وهي تسير بجانب الأم وعامل المطار الذي يدفعها، وتمسح البوابة بعينيها لتتأكَّد من وجـود الـجميع. نَجَوْنَ بأعجوبة من جُرْمِهِنَّ الصغير، بعد أن وقف الضُّبَّاطُ على حقيقة الموقف، وتأكَّدوا من عدم وجود حريق، وأمام كِبَرِ سِنِّ الأم وعَجْزِها وبكائها وتوسُّلاتها تركوها تذهب، مُـحَذِّرين ومُنْذِرين من تكرار الفِعْلة التي كانت من الممكن أن تلغي سفرهم جميعًا، بل وتزجُّ بهم في السجن. اقترب شامل من المُهْرَة وتلامست أياديهما بصورةٍ جَاهَدَا ألَّا تكون واضحةً للآخرين، ولكنها لم تكن خافيةً عن عينيَّ وقلبي.

* * *

20

الإنْديجــو

تمنَّيتُ أن أكونَهُنَّ، أو بالأحرى أن أكونَ جزءًا من كل واحدةٍ فيهنَّ: منطقُ الناقة، وإخلاص العنزة لمن تحبُّ، ورضا المحجبة بحياتها، وجموح المُهْرَة حتى مع مَن يصغرها بسنوات عديدة. لو كان لي أن أقتطع صفةً من هذه، وأخرى من تلك، وأضعها في جهاز خلط الطعام، ثم أحتسي هذا الكوكتيلَ الفريد، لَعِشْتُ سعيدةً هانِئَةً، ولتقلصتْ لحظاتُ شقائي في مهامي السابقة، وخاصة مهمة حلب التي تركتْ في نفسي آثارًا يصعُبُ محوها، بالرغم من مضي سنوات عليها.

انحدرت بنا الطريق عدَّةَ مرَّاتٍ. الْتَوَت والتفَّت. تعرَّجت ثم استقامت. سرتُ مع "الحسن" بخطوات سريعة واسعة كي نصل للفندق قبل حلول الظلام. جذبته من يده كي يبطئ قليلًا لألتقط أنفاسي، نظر إليَّ وابتسم ابتسامة طفولية وهو يراقب صدري يعلو ويهبط بسرعة كبيرة وقطرات العرق تتساقط بغزارة من فوق جبيني، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامته. ضَمَّ حاجِبَيْه وتصنَّع الجدِّيَّة. أشار إلى ساعته التي أعرف أنها لا تعمل وقال:

"إذا ما وصلنا قبل ما تعتّم رَحْ اخسر نص راتبي. ضباط الأمن ما بقلوبهن رحمة"

أمعنتُ النظر في ساعته ذات السوار الجلدي الأسود التي يرتديها كجواز مرور من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة. لم أَحْتَجْ إلى ساعة منذ أن وصلت. الوقت هنا نهارٌ أو ليلٌ ولا يهمُّ ما بينهما.

كانت مَهَمَّةُ "الحسن" مُرَافَقتي في طريق العودة كل يوم بعد أن أنتهي من عملي. تتفرَّق البعثة الحقوقية في طُرُقٍ مختلفة بعد لقاءاتها مع المجموعات المتناحرة حتى لا نَلْفِتَ الانتباهَ ونُصابَ جميعًا دفعةً واحدة، ولا يبقى أحدٌ لاستكمال المَهَمَّة. اخترت الطريقَ الجبليَّ الذي يشبهني. واختارني الحَسَنُ لِبَسْطِ حمايته، ولا مانع من بعض التَّسَلُّط الساذَجِ بين الحين والآخر. أصرف تفكيري عن احتمالات سقوط قذيفة أو رصاصات طائشة أو برميل متفجِّر. وأبدأ في مراقبة آثار أقدامي على الرمال. أمحو القدم تلو الأخرى، وأجتهد أن أُخَمِّنَ مقاس حذاء الحسن.

تجاهلتُ صرامته المُصْطَنَعَة، رفعتُ رأسي نحو سماءٍ رمادية بفعل الغروب ودُخَانِ الانفجارات وهواء خانق مُشْبَعٍ برائحة الغبار والبارود والزنبق البَرِّيِّ. عدَّلت الحقيبةَ الزرقاء على ظهري، وأخذت رشفةً بحرصٍ شديد من زجاجة المياه المعدنية التي أحاول جاهِدَةً أن أجعلها تكفيني اليومَ بأكمله، فالماء هو زادي الوحيد في مدن الغبار والدُّخَان، وأحيانًا بعض حَبَّاتٍ من الجوز والزبيب والتين المُجَفَّف إذا توفَّر.

تغيَّرَت المدينة كثيراً عن المرَّة الأولى التي شاهدتُها فيها منذ ثلاث سنوات. أقنعتني صديقتي أن أسافر معها لحضور مهرجان "الإنديجو" أو النيلة الزرقاء.

"ألا تكفينا النيلة التي نرتع فيها ليلًا نهارًا حتى أسافر لحضور مهرجان لها؟"

لم تبتسم وقتها لجملتي السَّمِجَة، فغلبني شعورٌ بالخجل من تَسْفِيهِ شيءٍ كان من الواضح أنها تقدِّره كثيراً.

هدأت أنفاسي المتلاحقة بعد رشفة الماء. أحكمتُ غطاء الزجاجة ونظرت نحو الحسن فوجدتُه يُحدِّق فيَّ بتركيز شديد. جاءت "زينب" التي تعمل طاهيةً عند صديقتي الدمشقيَّةِ وطلبت منِّي أن أجد أي وظيفة لابنها الحسن. الهجوم على قريتها الشيعية الصغيرة مستمرٌّ. مَنْ أفلت من سماسرة الحرب لم يُفْلِتْ من القتل والتنكيل بالجُثَث.

أتمَّ الحسنُ عامه التاسع عشر اليوم. أتى في الصباح بوجه مختلف عن كل يوم. وضع طبقات من "الجِلّ" المُثبِّت على شعره الفاتح، وارتدى قميصًا ضيِّقًا على الجسم، وترك أزراره العليا مفتوحةً، ظهر منها صدرٌ ناعم تخترقه بضع شعيرات صفراء نبتت في أماكِنَ متفرِّقَةٍ على استحياء.

أخرج الحسنُ الدفترَ الصغير الذي يُدوِّن فيه بعض الملاحظات وبعض المفردات باللغة العربية وترجمتها بالإنجليزية في محاولةٍ منه لإتقان اللغة، يقتحم لحظات راحتي ويُخرج الدفتر ويبدأ في سؤالي:

"خَالِه. إيش معنى قذائف الهاون والفرقاطة ودُول المُمانَعة والصواريخ المحمولة چوًّا والمُرْتَزَقة ومنظَّمات المجتمع المدني وچرائم الحرب؟".

فجأة صرتُ "خالتَه"، وقاموسَه العسكريَّ الخاص! سألته يومًا عمَّا إذا كان يعرف معنى الزعتر باللغة الإنجليزية أو شجر الزيتون أو القلعة التي يسكن بجوارها، فهزَّ رأسه نفيًا. منذ أن "توظَّفَ" في الثورة انصبَّ اهتمامُه على المصطلحات العسكرية والحربية فقط.

فتح الدفتر، فسارعتُ قائلة:

"حسن. لستُ مستعدَّةً لدرس اللغة الإنجليزية الآن."

ظهر التوتُّر على وجهه الطفولي وقَلَّب صفحات الدفتر حتى ورقةٍ مُعَيَّنَةٍ، دَسَّ يدَه وأخرج وردة أرجوانية مُجَفَّفَةً من بين صفحات الدفتر وقدَّمها لي.

انتقل الارتباك من الحسن إليَّ بفعل المفاجأة.

لم تستهوِني أبدًا الورودُ الجافَّةُ الذابلة في دفاتر المدرسة كسائر رفيقاتي في

المرحلة الإعداديَّة، ولم ترُقْ لي الوردة التي كان يضعها لي في علبة الكمان أسامة، زميلي في فريق الموسيقى في المرحلة الثانوية، كلَّ ثلاثاء، أثناء التدريب المشترك لمسابقات الموسيقى التي كانت تجمعنا بفريق الأولاد في مدرسة الطبري الثانوية بنين. وبالرغم من عَزْفِ أسامة الرائع، وحُبِّه الرومانسي، ورِقَّتِه المتناهية – كنتُ أنفر من وردته اليابسة.

كرهتُ أيضًا الورودَ المُحْتَضَرَةَ التي يُحضرها لي زوجي من محلِّ الزهور الكائن أسفلَ البيت، ويَضَعُها في المزهريَّة الكريستال البوهيمي وهو غافلٌ عن أنني أعرف أن كلَّ باقة زهور معناها موعدٌ غراميٌّ بينه وبين أخرى. فقط أردتُ ورودًا نابِضَةً بالحياة، حتى ولو كانت صَبَّارَةً خضراءَ فوق شاهِدِ قَبْرٍ.

شكرتُ الحسن باقتضاب ورفضتُ الهدية، حَثَثْتُه أن نُسْرِعَ قبل أن يَحِلَّ الظلام.

على مسرح قلعةِ حلب دخل الفنَّانون بقطع النسيج الشفَّافة، كِتَّانٌ رائعٌ، مصبوغٌ بأزرقَ مَلَكِيٍّ. بدأوا في عمل تشكيلات أثيريَّةٍ لانهائِيَّةٍ. جلسنا في مقاعدنا وجاءنا الموج والبحر والسماء. تشكَّل النسيجُ الأزرق خيمةً كبيرة ضمَّت بداخلها خيمةً أصغر وقاربًا وشَبَكَةً وعالمًا فضفاضًا رحبًا. ينفض الفنَّانون النسيجَ فتعلو أمواج البحر وتنخفض، ويحاكيها صدري قلقًا مترقِّبًا بين ضلوعي. ظَلَّلَنا النسيجُ الأزرق الدافئُ رحمًا

رحبًا حميمًا رحيمًا. لفَّني الأزرقُ بجَلالِه، وشعرتُ بامتنانٍ لصديقتي. دَنَا الفنَّانون من الحضور؛ اقترب البحرُ منِّي، بِمَوْجِهِ وزَبَدِهِ وسَمائِه. تسارعت دقَّاتُ قلبي مع اقتراب النسيج فوق رؤوسنا. ضاقت المسافة وضاقت حتَّى غَلَّفَتْنا تمامًا.

أطفأوا الأنوار فجأة. اختفى الأزرق وتحوَّل كفنًا أسود. عجزتُ عن التنفُّس، صرتُ أضرب بيدي في كل اتجاه. استحال النسيج سقفًا خرسانيًّا أمام قبضات يدي الواهنة. صرتُ أصرخ وأصرخ حتى غاب صوتي وغبتُ عن الوعي.

انتشلني الحسن من غيبوبتي وسألني:

"في إشي خَالِه؟"

"لا. لا شيء، يجب أن نسرع حتى تعود لمنزلك قبل الظلام"

دخل القيظ مبكِّرًا في صباح اليوم التالي. أين ذهبتْ شقشقات الطيور التي أُحبُّها على نافذتي البعيدة، وبقعة النجيل الجرداء في الجزيرة المواجِهة للبيت، وأذان الفجر على مئذنة الجامع العجوز، وآية الكرسي تتلوها أمي في الصالة الباردة، تُمسِّد رأسي بيدها المُبَلَّلَةِ كي تزيحَ عنِّي الصداع والحمَّى. أين قهوتي الليلية والصباحية؟ باتت بطعم الغبار!

أتت زينب في الصباح، ولم يأتِنِي الحسن. حَكَتْ لي عن قليلٍ أعرفه، وكثير أجهله أحيانًا، وأتجاهله أحايين. تركوا الرجال في قريتهم الصغيرة وقطعوا أوصال الأطفال أمام أعين آبائهم وأمهاتهم. حَكَت لي عن جسارَتِه منذ أن تعلَّمَت قدماه الرَّكْضَ. كان يقطع أذناب العقارب الصغيرة المنتشرة بالقرب من أسوار المقابر، ويضعها على كفِّ يده ليُخيف الفتيان والفتيات ويضحك. أخذوا الجثث المبتورة وتركوا أوصال الأطفال مُلْقَاةً في الزِّراعات القريبة. هرعت كلُّ الأمَّهات الثكالى يُحاولن تَذَكُّرَ علامة مميِّزَةٍ أو وَحْمَةٍ تركتها مشيماتُهُنَّ على إحدى ذراعَيْ أو ساقَيْ ولدها. حاولْنَ تَذَكُّرَ أيِّ علامة من لعب الأولاد في الباحَةِ الفسيحة التي تنتظر ضحكات الأطفال. تُرى، أين كانت النَّدْبَةُ الأولى حين وقع وهو يتعلَّم المَشْيَ ويخطو جريئًا نحو عتبة باب المنزل؟ كم عدد القطبات الطبية على قدم وليدها حين ركب دراجة أخيه أثناء غيابه؟ أين حَزَّ خيط الطيارة الورقية على سبَّابته؟ أخذن يتذكَّرْنَ وهُنَّ يُقَلِّبْنَ الأوصالَ المُلْقاةَ في المزارع، لَعَلَّهُنَّ يتعرَّفْنَ على أطفالهن. رَجعتْ من حالفها الحظُّ بذراعٍ وقدمٍ، أو ذراعين، أو قدمين. ومَن عَجَزَت عن التعرُّف على ضناها أخذت ما تبقَّى حتى لا يقول الآخرون "لم تتبيَّنْ وليدَها". بكت "زينب" كما لم أَرَ بكاءً سابقًا.

والآن! في مطارٍ باردٍ، في انتظار رحلةٍ لمدينة مجهولة، بكيتُ في صَمْتٍ لأنَّني لم أَقبلْ وردةَ "الحسن" اليابسة.

* * *

21

الفصل الأخير

نالْتْشِـــك

بعد انتظارٍ طويلٍ في مطار إسطنبول وصلنا مدينة نالْتْشِك قُرْبَ منتصف ليلة من الليالي التي تسبق مهرجانًا سنويًّا كبيرًا يُقام في المدينة. تزيَّنَت نالْتْشِك وبدَتْ في أبهى صورها كعروس ليلة حِنَّتها. اعتَرَتْنا جميعًا مَوْجَةُ فَرَحٍ طفوليٍّ أنسانا ما تكبَّدْناه من مشاقَّ منذ وصولنا المطار في عمَّان. بدت المدينة كما لو كانت تستعدُّ لاستقبالنا ونحن لا نعرف: هل قصدت عائلة الأم تحديد هذه الفترة للرحلة كي تتزامن مع موعد الاحتفالات فنرى

المدينة في كامل تألُّقها، أم كانت مَحْضَ مصادَفَةٍ مُبْهِجَة؟ ها هي أخيرًا مدينة لا يكسوها الغبار، ولا يكسو الحُزْنُ والهَمُّ ملامحَ أهلها. فاح عبيرٌ غامضٌ من الشوارع الضيقة النظيفة. استنشقتُه دون أن أعرف له وصفًا أو اسمًا. انتشرت في الجوِّ روائحُ أخرى مُحَبَّبَةٌ، مُتداخِلَةٌ، تغلب عليها رائحة الفاكهة، ربما من المَحالِّ التي لا تزال تفتح أبوابها في هذا الوقت المتأخِّر بصورة استثنائية بمناسبة المهرجان، أو من الشباب والفتيات المارِّين في الشارع. بَدَتْ السماء أقربَ بكثير من سماوات مُدُنٍ كثيرة زُرْتُها. أكثر نجومًا وأشدَّ صفاءً واتِّساعًا وزُرْقَةً. سَرَتْ في المدينة حالةُ تَرَقُّبٍ واستعداد لحدث جَلَلٍ يجري التحضيرُ له.

عائلة الأم كانت في استقبالنا في المطار. رحَّبوا بنا، بل وعرضوا علينا جميعًا الإقامةَ في بيوتهم، فشكرناهم؛ إذ كُنَّا قد حجزنا بالفعل في أحد الفنادق الصغيرة المُطِلَّةِ على نهر نالْتْشِك. اصطحبوا الأمَّ والأسرة وتوجَّهْتُ مع النساء الثلاثة إلى الفندق. كانت الأم ترى عائلتها للمرة الأولى في حياتها. تعرفهم فقط من خلال الصور القديمة التي احتفظت بها، والمكالمات الهاتفية مع الكبار الذين يتناقصون فردًا تلوَ الآخر.

أطلقتْ الأمُ لسانَها باللغة الشركسية منذ أن التقينا بشباب عائلتها الذين أَتَوْا لاستقبالنا. كان الوضع مُضْحِكًا مُبْكِيًا؛ شباب العائلة الشركسي في نالْتْشِك يفهمون الأمَّ بصعوبة بالغة، بعد تكرار الجملة عدَّةَ مرَّاتٍ،

واضطرارها لتغيير بعض المفردات أحيانًا. استقرَّ الحال على التواصُل فيما بيننا باللغة الإنجليزية. بَكَتْ الأمُّ بعد عِدَّةِ محاولاتٍ لاجترار لغة الأم، حين أدركت أن ما تحتفظ به من مفردات وعبارات جدود الجدود قد انتهت صلاحيته منذ عقود. توجَّهْتُ مع العنزة والمُهْرَة وشامل الذي أصرَّ على اصطحابنا للفندق، ورفض الذهاب إلى بيوت العائلة قبل أن يطمئنَّ علينا. تقمَّصَت العنزةُ شخصيَّةَ الأستاذة الجامعية وانبرت شارِحَةً لنا أن الأمَّ المسكينة لا تدرك أن اللغة كائِنٌ حيٌّ يُولَدُ ويعيش ويَهْرُمُ ويمرض ويموت مُفْسِحًا المجالَ لمواليدَ جُدُدٍ، وما لا يُسْتَخْدَمُ يَضْعُفُ ويموت. أومأت المُهْرَة تصديقًا لكلامها، وأشعلت سيجارة وأضافت بجدية: "تمام. تمام. متل أعضاء الجسد كمان لازم استعمالها كل ما صَحتْلِنا الفرصة، وإلَّا بكينا بنفس حُرْقة الأم اليوم على لغتها الضائعة. لعلَّ وعسى تكون زيارة نالْتْشِك مفيدة للجميع". وانفجرت ضاحكةً وهي تنفث في وجْهَيْنا دخانَ سيجارتها وتغمز ناحية شامل وهو يغادرنا.

سحرتنا نالْتْشِك كُلاً على طريقته ومزاجه. كنَّا نقضي بعض الوقت في تلبية دعوات لغداء أو عشاء من أهل الشركسية، أو حضور عرس أو المشاركة في خطيفة، وفي الأيام التي تخلو من تلك الدعوات كنَّا نقضيها في التسوُّق أو التمشية على ضفاف النهر. كانت الناقة تتركنا كل صباح وتعود لنا مساء مُحَمَّلَةً بكُتَيِّباتِ المتاحف التي زارتها وبطاقات حفلات

الأوبرا والموسيقى والفنون الشعبية. تبدأ الحديث عن العروض التي حضرتها بحماس لم نَرَهُ عليها منذ فترات طويلة، ربما منذ وفاة سالم. كانت قد عزفت عن الذهاب للمسارح التي تعشقها، أو متابعة الحركة الأدبية، والمدارس الفنية. لكنها استعادت كل ذلك في نالْتْشِك، وبدا أنها سعيدة تمامًا. في نفس الوقت شهدت المدينةُ تَطَوُّرَ العلاقةِ بين المُهْرَة وشامل، التي لاحظتُ ولادتها ونحن في مطار الملكة علياء. ولَمَّا مازَحْتُها مُلَمِّحَةً لِصِغَرِ سِنِّه، خَبَطَت على كتفي قائلة: "إيش خَصِّني بصغر سنه. المهم عنده أشيا تانية كبيرة". كانت المُهْرَة تغيب طوال النهار مع شامل، يجوبان الشوارع والطرقات والحدائق العامة، وفي المساءات تكون لهما حديقتهما الخاصة في غرفتها المجاورة لغرفتي التي يصلها صوت تغريدهما الليلي. مع غياب الشركسية لدى أهل أمِّها لم يتبقَّ سوى العنزة وأنا، فزاد التقارُبُ بيننا وتواصَلَ الحديثُ والحَكْيُ بلا انقطاع.

في اليوم السادس على وصولنا لمدينة نالْتْشِك استيقظتُ على خبطات متعجِّلَةٍ على باب غرفتي. عندما فتحت الباب وجدت الناقة واقفة أمامي هادِئَةً، وإِنْ كانت ملامِحُ القلق باديةً على وجهها رغم ذلك، وعرفنا الخبر.

غرفة العناية المُرَكَّزَة باهِتَةٌ، بارِدَةٌ، صادِمَةٌ أيضًا في نالْتْشِك. تشابَهَت المستشفياتُ ورائحة الديتول والممرِّضات رغم شعورهنَّ الشقراء وعيونهنَّ الزرقاوات. رقدت الأمُّ على سرير طبي حديديٍّ بارد. ستائر رمادية باردة تفصل بينها وبين المريضات الأخريات. سقطت الأم أثناء محاولاتها النهوض من السرير وغابت، ولا تزال غائبةً حتى الآن.

صارت المستشفى مكان تَجَمُّعِنا اليومي. نتحلَّق حولها في مساحةٍ ضيِّقَةٍ، صامِتين جميعًا، يقطع صمتنا بين الحين والآخر نحيبُ ابنتَيْها. كانت صديقتنا منهارةً تمامًا. لم تكن بَعْدُ مستعدَّةً لِفَقْدِ أمِّها، بينما بَدَتْ سَتانيه متماسِكَةً، ومُسَيْطِرَةً على الأمور الإدارية والتنظيمية والمادية. أثناء مغادرتنا حجرتها في نهاية الأسبوع لحقت بنا سَتانيه وأشارت إلى أنه من الأفضل أن نذهب "للمول" لشراء ملابِسَ سوداء. أجهشت أختُها بالبكاء وعارَضَت بشدَّة: "أمي بخير، رح تكون بخير. رح نفتح صرتها ونكشف إيش فيها ونضحك وهي معنا، ونشوف من رح يكسب الرهان، رح نرجع ع بيتنا في عمَّان وأكمل خدمتها ورعايتها لآخر يوم في حياتي. مش رح أشترى ملابس سودا هيَّ عم تكره الألوان الداكنة. أمي بخير". اقتربت منها الناقة، احتضنتها بِحُنُوٍّ شديد قلَّما يظهر منها. ربَتَتْ على كتفيها وأومأت موافِقَةً: "أوكي، مش رح نشترى ملابس سودا".

في اليوم التالي ذهبنا كعادتنا للمستشفى، انطلقنا من الفندق، وتَقَابَلْنا عنـد أبوابها مع سـائر أفراد الأسرة. كانـت حالة الأم آخِـذَةً في التَّدَهْوُرِ دون أي بادرة شفاء أو تَـحَسُّن، أو حتى الإفاقة من غيبوبتها. دخلت مع صديقتـي أولاً لرؤية أمها؛ حيث أصبح تواجُـدُ أكثرَ من فَرْدَيْن في وقتٍ واحدٍ ممنوعًا بأمر الأطبَّاء. كانت الأم ترقد بوجهٍ لا يبين من قناع الأكسجين وأنابيب المحاليل الرفيعة التي تخترق ذراعيها والأسلاك الـمُتَّصِلَة بشاشات "المونيتور". أزاحت صديقتي الستارةَ الرمادية، وجلست على طرف السرير كـما تفعل كلَّ مرَّة، وبدأت تُـحَدِّق في ملامح كُنَّا نعرفها. وجهٌ شـاحب، عينـان مغمضتان، فَمٌ نصف مفتوح تسـيل بعض السـوائل البيضاء على جانبيـه، أنبوب رفيـع ذو فرعين داخل فتحتي الأنـف ومحلولٌ مِلْحِيٌّ في الذراع يبقيها على قيد الحياة.

بعد عدَّة دقائق اكتشفنا أنها ليست الأم! كانت مريضة أخرى قد احتلَّت مكانها. أتت الممرِّضَة وأشارت إلى الجهة الأخرى من الحجرة وقالت: "ليست مريضَتكُم. نقلناها إلى الناحية اليمنى". نهضت صديقتي من جانب المريضة التي لا تعرفها واتَّـجَهَت للناحية الأخرى من الغرفة. عندما عجزتْ عن التعرُّف على أمِّها ولو للحظاتٍ قليلة؛ حينئذ فقط أيقنتْ أن عليها أن تمتثل لأوامر أختها الصارمة، وتذهب لشراء ثوب أسود.

بعد العودة من "المول" توجَّهنا جميعًا إلى منزل الأسرة. تَـحَلَّقْنا حول الصُّرَّة القماش. بَدَت كباقة زهور ملوَّنَةٍ وسط المقاعد المغطَّاة ببيَّاضات من

اللون البيج لحمايتها من الغبار. تقدَّم شامل لفتحها وسط نفس التَّرَقُّبِ الذي اعْتَرَى الأُخْرَيات في المطار، وإن خَلَا هذه المرَّةَ من جوِّ المرح الذي ساد آنذاك. فتحنا الصرَّةَ لنجد أمامنا عدَّةَ طبقات مطويَّة بعنايةٍ من الأقمشةِ القطنيةِ والحريريةِ من اللونين الأبيض والوردي الفاتح، وبعض الزجاجات الصغيرة مكتوب عليها باللغة العربية زيت عود ومسك وماء ورد ولافندر، وحقيبتين صغيرتين من الجلد الفخم: الأولى بها القرآن باللغة العربية، والأخرى بها القرآن باللغة الشركسية. كانت تعرف، أو ربما كانت تتمنَّى أن تموتَ في مسقطِ رأس أجدادها، وتُدْفَن بجوارِ أسلافِها في أرضٍ تطأها للمرة الأولى والأخيرةِ في عمرها.

في الطريـق لمدافن العائلة على أطراف المدينة، سـار رَكْبُ السـيارات بمحاذاة النهر. جلستُ مع شامل والمُهْرَة والعنزة وسط الزحام والضجيج وآلام الحلق التي عاودتني في سيارة مُتَّجِهَةٍ ناحية المقابر، في مدينة حَسِبْتُها تختلف عن كل مُدُنِ الغُبار!

اشتدَّ الزحام صباحًا في هذا الشارع الرئيسي الذي يربط بين مناطق المدينة. توقَّفنا عدَّةَ مرَّاتٍ في إشارات المرور، ثم عاودنا السَّيْرَ مرة أخرى نحو الميدان الكبير الذي يشهد تَـجَمُّعاتٍ كثيفةً من الشباب الذين توافدوا للاحتفال بالمهرجان، وبدا أنه لا سبيل للتَّحَرُّكِ وسط هذ الجنون والتجمُّعات الصاخِبَةِ التي تركَّزَت في هذه البُـقْعَةِ تحديدًا، والتي كانت هي المَنْفَذَ الوحيدَ لمنطقة المدافن.

رصيفُ الشارعِ كادَ يخلو من موْطئ قَدَمٍ عارٍ، وعلى ضفةِ النهر المقابلِ طاحونةُ هواءٍ وحيدةٍ لا يتَّضِح لونُها على البُعْدِ، ولا تدور بالرغم من شدَّة الرياح! أنا فقط أرتعشُ من التهاب الزور وتكييف السيارة، وأعمدة الإعلانات تتشفَّى. حاولتُ أن أضمَّ ملابسي الخفيفة حول جسدي وأضع كفِّي في جيبي كي أشعر ببعض الدفء. الوقت لا يمُرُّ، البرد لا يتبدَّد، والجماهير الحاشِدَةُ لا تتحرَّك، صفُّ السيارات طويلٌ، والمصباح الأحمر ثابِتٌ، لا يتغيَّر لَوْنُهُ.

وصلنا إلى مدافن العائلة. اصطفَّت السيارات في أماكن الانتظار، وتقدَّمْنا بباقات الزهور نحو الشواهد الرخامية المحفور عليها اسم المُتَوَفَّى وسنة ميلاده وسنة الوفاة. اتَّشَحْنا جميعًا بالسواد، حتى الناقة التي كانت رافضةً تمامًا لوجود مَن يرتدي الأسود في عزاء زوجها، ارتدت چاكت أسود أنيقًا احترامًا لصديقتنا وحرصها على هذه التقاليد. سارت كُلُّ المراسم على "أَشْيَكِ" ما يكون. كل شيء محسوب تمامًا، كما نظَّمَت سَتانيه في اليوم السابق. وَقَفَت الابنتان في الصفوف الأولى، وتلاهما الأقارِبُ؛ كُلٌّ حَسْبَ درجة القَرابَة للأم، فوجدت نفسي أقف مع الناقة والمُهْرَة والعنزة في الصف الأخير.

عندما قارَبَت مراسِمُ الدفن على الانتهاء، وبدأ الجميع يتفرَّقون إلى أماكن انتظار السيارات تحرَّكَ شامل للخلف بهدوء في اتجاهنا، ووقف

بجوار المُهْرَة وعيناه ممتلئتان بدموع طفولية صادقة. أمسكتْ المُهْرَة بيده، وشدَّت على قبضته بِحُنُوٍّ شديدٍ. نظرتُ للناقة أستجير بها وبِحَزْمِها في مثل هذه الظروف. أمسكتني من خصري بقوَّةٍ، وقالت بصوت هامس: "لا عليكِ! رَحْ بتسير الحياة. بينا نشاهد فرقة الباليه بآخر ليلة إلنا قبل ما نرجع".

انطلقنا بالسيارة عائدين. جلس شامل في مقعد القيادة وبجانبه المُهْرَة التي استعادت مَرَحَها، بينما جلستُ في المقعد الخلفي في المنتصف بين الناقة والعنزة. نَظَرْتُ للأخيرة وعلامات الاستفهام لا سبيل لإخفائها. فَهِمَتْ نظرتي، فتحتْ حقيبةَ يدها لتطلعني على بطاقة سفر للولايات المتحدة الأمريكية! سألتها بصوت خفيض: "ألم تؤكِّدي لي بألَّا ننتظر مَن يعرف أننا ننتظره ولا يأتي؟". تطلَّعَتْ بنظرها خارج السيارة وهي تشقُّ الشوارع التي جئنا منها، وردَّتْ: "لن أنتظره. سأذهبُ إليه".

عندما بلغنا نفس نقطة الزحام التي أتينا منها، انشقَّ الإسفلتُ، أو انشقَّت السماء، أو هاج النهر الصغير تحت الجسر وقذف برجل تجاوز الثمانين من عمره. وقف على الخطوط البيضاء أمام كل السيارات المُصْطَفَّةِ وكأنه بُعِثَ من قبره أو خرج من قُمْقُمٍ خَفِيٍّ. وقف شِبْهَ عارٍ، بقميص خفيف يكشف أكثر ممَّا يُخْفِي، أخرَجَ كُـرَةً لا أعرف من أين جاء بها، أكبر

من أن يُخفيها في فمه أو كُمِّ قميصه المُهَلْهَل. كُرَةٌ بيضاء متَّسِخَة كهيئته، وبها رسومات من المُعَيَّن الهندسي باللون البرتقالي الباهِت. بدأ أمام جميع السيارات المنتظرة في إشارة المرور في "تنطيط" الكرة على كتفه اليمنى عِدَّةَ مرَّاتٍ، ثم الكتف اليسرى، ثم الرأس. يقذف الكرة بيده لأعلى، يلفُّ حول نفسه عدَّة دورات فاردًا ذراعيه كطائر مُحَلِّقٍ، يغمض عينيه ويدور، ثم ينظر إلى أعلى ويعاوِدُ ألعابَه غيرَ عابئ بتغيُّر لون الإشارة وصافرات السيارات وتلويح الرُّكَّاب بأيديهم بإشارات بذيئة مشتركة بين جميع الشعوب، وشتائِمَ حَزَّرْتُ معناها. يظلُّ هكذا إلى أن ينتهي تمامًا ويبدو راضيًا بما أنجزه. تَرَجَّلَ شامل من السيارة، وفتح المظروف الذي وضعنا به نقودَ الرِّهان في مطار عمَّان، أعطاها للرجل الواقف في المنتصف. عاد لمقعد القيادة، وأحكم حزام الأمان، وغمغم بهدوء: "ليس هناك مَنْ رَبِحَ الرِّهانَ".

تَمَّتْ

المؤلفة في سطور

أمل رضوان من مواليد القاهرة.
حاصلة على ليسانس أدب إنجليزي وماجستير في الترجمة الفورية.
تعمل حاليًا مترجمة فورية بالأمم المتحدة.

صدر لها:

- "البيت الأولاني" – مجموعة قصصية، دار العين للنشر –القاهرة– طبعة أولى 2014، طبعة ثانية 2018.
- "شوكولاته سودا" –مجموعة قصصية، دار العين للنشر– القاهرة 2017.

- حازت الجائزة الأولى لمؤسسة ساويرس الثقافية لكبار الكتاب عن "البيت الأولاني" 2015.
- ترشّحَتْ للقائمة الطويلة لجائزة الملتقى للقصة القصيرة بالكويت عن "شوكولاته سودا" 2017.